سلسلة شهادات سورية 1

موزاييك الحصار

عبد الوهاب عزّاوي

بيت المواطن
للنشر و التوزيع

موزاييك الحصار

سلسلة شهادات سورية -1- موزاييك الحصار
عبد الوهاب عزاوي

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: عبد الوهاب عزاوي
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2013
ISBN: 978-9953-583-33-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

عبد الوهاب عزاوي

موزاييك الحصار

موزاييك الحصار

وُلِد هذا المشروع كمذكرات تسعى إلى توثيق حصار دير الزور الثاني، الذي بدأ في النصف الثاني من شهر حزيران 2012، وكان الحصار الأول في آب 2011. إنها تسعى لبناء توثيق حسي بعيداً عن اختزال الأشياء إلى تعميمات تطمس التفاصيل الصغيرة التي تذوب في الزمن، جولةٌ في متاهة العالم الداخلي باعتباره مصفاة للعالم الخارجي. إنها وسيلة لتفكيك الحصار، للتخفيف من هول كتلته، مرافعةٌ طويلة أمام القذائف الصماء، أمام اليأس والخوف، مرافعةٌ طويلة كمنام طويل، لا أصرخ فيها على أحد، المقاعد فارغة، وصوتي يسير دون أن يصطدم بأي شخص، جمهوري مُتخَيَّلٌ ومجهول الهوية. إذن هي مرافعة على خشبة مسرح، منولوج طويل يلقيه «الممثل» أمام مقاعدَ فارغة يتخيّلها ممتلئة، ولا يريد أن تلتقي عيناه بأعين الجمهور. حرصت على ألا أكتب بحزن ـ ولم أنجح دائماً ـ لأن ذلك ببساطة يفاقم الحزن. لا أرغب في التفجع أو التشفي، وإنما بالسرد الطويل دون لغة باذخة في مجازها، سرد يجري مع الريح، حوار طويل ما بين متكلم ومصغٍ لا يتحاوران بالضرورة، حاولت فيه الهروب من السياسة بصيغتها المباشرة، لأني أحتقرها باعتبارها شراً لا بدَّ منه، ومع ذلك لم أقدر على منع نفسي تماماً، لأن بعض الهواجس تنعق في ذهني دون توقف. بالتأكيد الوصف السابق ظالم لأنه يبدو يائساً وعبثياً، لأنه يلغي الآخر ببساطة. لا، الآخر دائماً موجود وبابتسامة ماكرة أحياناً، بملامح قد تكون ملغّزة..

هذا السرد وسيلة لمقاومة اليأس والجنون والاستسلام، وهو بذلك حاجة أكثر منه ترفاً، تجربة غير مجنّسة في الكتابة، والأهم أنها جديدة عليّ، بمعنى أنها تشكّل مخرجاً من وطأة عجزي أمام اللغة في الفترة الماضية، لأني لم أعد قادراً على الكتابة كما كنت أفعل سابقاً، لم يعد الشعر يكفي، أعترف بميلي القديم لكتابة السرد الطويل، بإغراء ما لكتابة الرواية، المتعارض مع نزقي الذي لا يسمح لي بالغرق في شخصيات أخلقها لتأسرني. كنت أكثر أنانية وخوفاً من أن أجرّب ذلك، عالمي الداخلي يرفض أن يفقد أناه المباشرة ويرفض الانزياح، والأهم أني لا أملك ما يكفي من الأدوات لصنع رواية، ومن ذلك أني كائن انعزاليّ، وبالتالي لم أدخل في عمق حيوات الآخرين مع ما تحمله من تنوع. بكل الأحوال، قررت أن أكتب كل يوم، دون أن أضع تصوراً دقيقاً عما سيؤول إليه هذا المشروع، حتى أني كنت أتفاجأ بتطوره، بغزارة الإضافات، ومن هنا داهمني خوف من إمكانية تخريبه بالغزارة، إذ ليس من السهل أن يكون المرء حراً في الكتابة، خاصة بعد أن يكون قد امتلك شيئاً من الخبرة المتواضعة التي تكفي لزرع ذلك الخوف النقدي من التدفق غير المنضبط الذي سيجعل إعادة تحرير السرد أمراً بالغ الصعوبة، والأهم هو عدم الدخول في أشياء لا علاقة لها بحالة الحصار، الذكريات القديمة، المواقف الملتبسة. ومع ذلك ليس التحرير ما يقلقني، إنه عدم القدرة على التحكم بهذا التدفق أولاً، أخشى الترهل أو التكرار، والأهم أخشى الغرور، ذلك الغرور الموجود في كل كتابة شخصية، سيطرة الأنا باعتبارها مركزاً جاذباً للتفاصيل، باعتبارها مركز العالم الداخلي الذي يدور فيه هذا العمل.

حرصت على ألا أكتب رثاءً ممجوجاً يضيع في فضح وحشية الديكتاتورية ضد البشر، هذا أمرٌ محسوم، بل تم التركيز على التفاصيل الإنسانية فيه، التي تضيع مع الزمن، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحصار شرطٌ حياتيٌّ معقّد، ولا بدَّ من الإشارة إلى أن الحصار مرَّ بمراحل متعددة (في بعضها

عدت للعمل في عيادة جديدة أو اضطررت إلى الهرب خارج المدينة)، وبالتالي نوعية الحصار تتغيّر، مؤديةً إلى تغيُّر موازٍ في بنية الكتابة.أخيراً عليّ أن أكون أميناً، فهناك مقاطع لم أجرؤ على كتابتها، ليس خوفاً من النظام فقط، بل خوفاً من نفسي، من توثيق لحظات ضعفي وعجزي، من تعريتي من رباطة الجأش والاتزان، وهناك تغيُّرات في المجريات على الأرض فرضت تغيُّرات في الموقف منها، مما يوحي بتناقض ما بين بداية العمل ومقاطعه النهائية، لم أحاول أن أضع إشارات لتلغي هذه التناقضات، فهذا يشوه مصداقية العمل، ولم أحاول أن أبدو ذكياً لدرجة معرفتي بمَ ستؤول إليه الأمور، بل اكتفيت بإيراد معلومات تبرر هذه المستجدات دون محاولة توثيقها والغرق في تحليلها، حتى أن بعضها مبني على روايات شخصية تحتاج إلى توثيق غير متاح دائماً، كما تحاشيت وضع تواريخ في العمل، لأنه وثيقة حسية وليست تاريخية.

أخيراً لا بدَّ من الإشارة إلى التفاوت في مستويات الكتابة بين المقاطع، بين لغةٍ تقريرية وصفية خارجية، وبين أخرى ذاتية فيها كمون إبداعي، ما بين سرد لتفاصيل موضوعية ومنامات شخصية مثلاً، مما يقترح إعادة ترتيب المقاطع أو تقسيم العمل أو الحذف الجائر أحياناً، لكن هذا التفاوت جزء من موزاييك الحصار، لذلك قررت أن أحافظ على التسلسل الزمني للمقاطع.

عبدالوهاب عزاوي

2013/1/3 - 2012/7/14

ـ 1 ـ

كثيراً ما كنت أفتخر بيني وبين نفسي (أو أمام صديقي مهند الجندي حصراً الذي يتبنى موقفي نفسه) بأني قادر على العيش منعزلاً لفترات طويلة، وأني قادر على التمتع بذلك أيضاً، وللأسف كثيراً ما كانت تدور في ذهني فكرة المعتقل والحبس في المنفردة بشكلٍ أدق، كنت أقول بشجاعة هشّة إن كل ما أحتاجه هو كتب وأوراق وموسيقا وإضاءة. ما اكتشفته في الفترة الماضية هو أني فشلت أحياناً كثيرة في هذا الاختبار، قد يكون الأمر ناجماً عن أن العزلة الآن إجبارية وليست اختيارية (إذ إن التباهي بالتأقلم معها هو تباهٍ اختياري)، وقد أكون الآن أكثر تصالحاً مع مجتمعي، فقد كنت أعاني في تلك الأيام من صراعات مرضيّة، سلطوية الأسباب، في فترة الاختصاص، وهذا يجعل العزلة نوعاً من الحماية، في حين أن الانتفاضة الآن، مع كل ما تحمله من خوف مرافق للتغيير، توحي بإمكانية حرية أو على الأقل التخلص من كتل الرعب التي كنا عاجزين أمامها. هناك تبريرات أخرى عديدة لفشلي ولكنها لا تلغي كونه فشلاً، والأهم أن هناك ما يشبه الفرح الممزوج بالخيبة، فهو يدلّ على سلامةٍ نفسيةٍ، أو فلنقل مراضة أقل.

ـ 2 ـ

عندما أسمع الضجيج المشوّه الصادر عن الـ baby phone في الطابق الأرضي في غرفة المعيشة (إنه اسم مضحك فعلاً وكأن المرء لا يعيش في

غرفة النوم أو المطبخ) حيث يوجد الجهاز المُرسِل في غرفة ابنتي النائمة في الطابق الثالث، أقفز كالملسوع، لأن ضجيجه يعني أن «مدى» استيقظت، وهي تخاف عادة إن أفاقت ولم تجد أحداً قربها، لذلك أصعد الدرج قفزاً نحوها، فأكتشف أنها ما زالت نائمة، وأن الجهاز التقط صوت القذائف البعيدة، والأمر مجرد لبس بين ابنتي وقذيفة.

ـ 3 ـ

إحدى «الألعاب» التي أمارسها مع نفسي في أوقات الفراغ الإجبارية الطويلة والقاتلة، إقحام نفسي في العديد من المشاريع، إنها وسيلة دفاع تقليدية عند بعض السجناء (السياسيين بشكلٍ خاص)، الاندفاع باعتباره وسيلة لإلهاء الذهن عن الأشياء المؤلمة، تشتيته عبر التركيز في مواضيع متباعدة، منها الكتابة، (مثل هذا المشروع المبهم)، أو الرسم الذي عدت له بمواد قديمة جداً يزيد عمرها على خمسة عشر عاماً، أو الدراسة في الطب أو اللغة، أو الرياضة، (أنا لم أمارس الرياضة بشكل جدي منذ سنوات)، أو قراءة الأدب والرواية تحديداً، مع الأخذ بعين الاعتبار أني أخذت قراراً ضمنياً بتحاشي السياسة، مشاهدة الأفلام الإيطالية والإسبانية لبعض المخرجين المحددين، وبالتأكيد هناك وقت طويل لأسرتي ولمدى بشكلٍ خاص. عليّ أن أعترف أني أحس بانشغال شديد في بعض الأحيان، بضيقٍ وهميّ في الوقت، وكل ما سبق قد يتحول إلى خطر حقيقي، عندما يفشل المرء في تلك الحقول الواسعة (وهو ما يحصل في معظم الأحيان)، عندما يعجز عن متابعة الجري، لا لأن نَفَسه قد انقطع، بل لأنه توقف دون سببٍ واضحٍ، وقتئذ يتفاقم الإحباط. الأمر إذاً نوع من المقامرة البائسة على طاولة تدور على نفسها فتمحي وجوه من عليها، الخسارة فيها عالية، ولكنها أقل من الربح إن تمكنّا من النجاة.

-4-

كثيراً ما كان موقع بيتنا المجاور لفرع أمن الدولة في منطقة الفيلات مثار جدل، ففي بداية الانتفاضة كنا نحس بضيق، لأننا مراقبون، ومع بدء انتقال الانتفاضة نحو التسلح بات الأمر أشبه بكابوس، فقد تحولت المنطقة إلى ساحة صراع، وبعد الاجتياح الأول، صار الخوف من القناصين أمراً يعيق الحركة فعلاً، حتى أني كنت أُضطر إلى قيادة السيارة بتمهّل شديد مع إشعال أضوائها الداخلية تحاشياً لإطلاق النار، وبعد بدء الحصار الثاني اكتسب موقع بيتنا ميزة خاصة، إذ إنه، بسبب قربه من فرع الأمن، بات محمياً ضمناً من قذائف المدفعية والطيران والدبابات، والأهم لم يتم قطع الماء والكهرباء عنه لفترة طويلة بسبب تداخلها مع خطَّي الفرع. إذاً، نحن نتمتع بميزات الجار اللدود.

بالطبع ازدادت المعارك في محيط المنزل، مع هجرة معظم سكان المنطقة في بداية الاجتياح الثاني، ولكن في الإطار العبثي نفسه عاد قسم كبير من الناس إلى المنطقة، ولكبر البيوت فيها (فيلات) بات البيت يحوي عدة أسر يصل عددها أحياناً إلى أربع أو خمس..

-5-

في الظروف الاستثنائية تتغيّر قيمة الأشياء، ومع أن هذه الفكرة بديهية ولكنها لا تفقد طزاجة دهشتها أو مرارتها أحياناً، فقد تصبح ربطة الخبز اليابس (والذي بدأ بالتعفن) حدثاً جَلَلاً في وقت الجوع (وهو ما حصل لدينا فعلاً في مرحلةٍ ما)، بالنسبة لي حظيت بوجهها الإيجابي، فالمكيفات القديمة ذات الهدير العالي (التي يُنظر إليها عادة بشيء من قلة التقدير مقارنة بالحديثة) باتت نعمةً تحجب أصوات القصف مما يسمح لنا بالنوم، الذي تعجز عن حمايته المكيفات الحديثة.

ـ 6 ـ

أصعب سؤال يواجهني هو كيف سأشرح لابنتي ما يحصل اليوم، أتمنى ألا أختزل الجواب بأنها انتفاضة ضد نظام ديكتاتوري. كيف سأفسر لها عدم انتفاض الناس طوال أربعين عاماً؟ أو أن المطبّلين في مسيرات النظام تحولوا أنفسهم إلى ثوار! وكيف أهمل المجتمعُ القلةَ القليلة التي وقفت في وجه النظام ما قبل الانتفاضة، حتى نحن المعارضين القدماء (إن قبلنا مصطلح المعارضين الجدد) كنا ننظر إليهم بمزيج من الإعجاب والعتب والاستهبال.

ـ 7 ـ

اكتشفت أن لغتي لم تعد تكفي. العوالم في شعري قبل الانتفاضة مليئة بالألم والموت. كيف سأكتب؟ هل سأعيد اليوم ما كنت أكتبه منذ ثلاث سنوات؟ هل أقبل أن التغيير الوحيد هو أن ما كان تأملياً بات اليوم محسوساً ومعاشاً؟ هناك إحساس عميق بفقدان الثقة أحتاج إلى وقت لمواجهته، والحل يبدو في العودة إلى البساطة، إلى اللغة الأولى، أو العودة إلى الرسم حين يعجز الكلام.

ـ 8 ـ

من الجميل أحياناً أن تكون معارفك قليلة لأن هذا يجعل الشهداء مجرد شهداء، أي فكرة عامة مجردة، يكون الشهيد تفصيلاً صغيراً فيها، قابلاً للنسيان والتغيير بحلول شهيد جديد، حتى أن الناس يركزون على العدد اليومي للشهداء أكثر من الشهداء أنفسهم، وكأن العدد يختزلهم، يحولهم إلى تلك العبارة المهينة «وقود الثورة»، مما يفرض سؤالاً مزعجاً:

كم كيلومتراً يقطع محرك الثورة بتنكة شهداء؟ أما أن تعرف الشهيد بشكلٍ شخصي فهذا يجعل النسيان صعباً ويخلّف مرارةً تدوم ما دامت الانتفاضة على الأقل، قد تخفت ذكراهم مع الوقت ولكنهم يبزغون في تفاصيل معينة، يطلون برؤوسهم المغشاة بدمٍ عتيق وابتسامة، يربتون على حرقة المتذكرين، ثم يعودون إلى لحاف النسيان، ولهذا فإن لانعزاليتي ميزة بسيطة ولكنها هامة في توفير الألم.

ـ 9 ـ

من أسخف التناقضات أن ينشقّ أشخاصٌ كانوا من عصب النظام لعقود، والسبب المعلن هو عدم تحملهم «للنظام المجرم» ودعمهم لصفوف الثورة، بل إن بعضهم يطلب دوراً مباشراً في الحراك الثوري مثل نواف الفارس ورياض حجاب، وبعضهم يُمنح هذا الدور من قبل المعارضة مثل ما فعل ميشيل كيلو مع مناف طلاس، ثم تأتي المعارضة فاتحةً صدرها بغباء وسذاجة بحجة تشجيع الانشقاق. كل ما يؤكده لي هذا العبث هو أن المعركة أطول بكثير من توقعي، أنا أعلم تماماً أنه محكوم عليّ أن أبقى معارضاً، ولكني لست من الغباء درجة أن أُنصّب جلادي زعيماً ثورياً.

ـ 10 ـ

عزيزي سعدالله ونوس: هل نحن محكومون فعلاً بالأمل؟ يبدو أننا محكومون بالمعارضة أولاً كحقيقة موضوعية، والأمل ثانياً كفعل ذاتي إرادي وكحاجة لاحقاً. بصدق، أنا لا أعرف تماماً فيم يتركز الأمل، بمعنى آخر لا أملك تصوراً واضحاً عن ماهية الأمل الذي سيحكمني، ولكني أعدك كرفيق في حزب الأمل أني سأحاول المحافظة عليه، ريثما تتاح لي فرصة التعرف عليه.

ـ 11 ـ

من أسوأ ما تحمله الانتفاضة هو الحوارات الداخلية التي نخوضها في ما بيننا، ونحن محاصرون عاجزون عن أي فعل أو تغيير فعلي في مجريات الأحداث. ما تخلّفه هذه الحوارات عند أشخاص راديكاليين هو جروحٌ تحت الجلد عميقةٌ، لا تُرى، تعيق التواصل فيما بينهم لأنها تحمل الكثير من التخوين العبثي الذي يزيد العمى عماءً.

ـ 12 ـ

عندما يغضب الناس يَصْفِقُون الأبواب وراءهم وكأنهم يوجهون صفعةً ختاميةً نحو خصومهم، حيث لم يعد الحوار ممكناً. عند كل قذيفة تهتزّ الأبواب والشبابيك وكأنها تُصفَق جميعاً في آنٍ واحد، وذلك يتكرر طوال اليوم في حوارٍ حاد مبتورٍ ومتقطع بين الشبابيك والأبواب، يبدو أنه لا ينتهي.

ـ 13 ـ

صُعقت بمعلومةٍ من إحدى القنوات في حوار مع أحد الضباط أن سعر قذيفة الدبابة هو 1500 دولار. إنه رقم مرعب يُصرف يومياً عشرات المرات بالحد الأدنى في ديرالزور. حضرتني فكرة طاغية على ما فيها من سذاجة (هل ترون متعة اللغة في أن تصف ببساطةٍ فكرة ساذجة بأنها طاغية)، وهي لو قدم النظام لأي بيت ستنزل عليه القذيفة مبلغ 1500 دولار فإنه قد يقتل أفراده دهشةً، أكثر مما تفعله القذيفة، وبالتأكيد إن ذلك سيحصل بضجة أقل، ولو تخيّلنا أن النظام يلقي من سماء المدينة بضعة ملايين من الليرات السورية يومياً على الناس، ألن يكون ذلك حلاً أسرع وأوفر لمشكلته؟!

ـ 14 ـ

بعد فترة من تحوّل إطلاق النار إلى حدث دائم، متوقع في أية لحظة، يطور المرء إحساسه الفراغي (لطالما كنت معجباً بالهندسة الفراغية)، إذ تظل حاضرةً على الدوام فكرة عبور طلقة من خلال الشباك أو الباب أو نزولاً من السقف، والأمر يتفاقم مع اختلاف أنواع الطلقات في حجمها وقوتها، وكثيراً ما أبتسم وأنا أتذكر مزحة «الرصاصة التي لفّت الكوع». هنا تصبح الرصاصة فكرة تدور على الدوام في الرأس وتقتل صاحبها ببطء شديد.

ـ 15 ـ

«الثورة الجميلة التي لم تأت بتدخل خارجي»، كانت هذه فكرة لمقطع لا أعرف لماذا بقيت أتحاشاه، كنت أعتقد أن مرد ذلك يعود إلى أنه سيقودني إلى تحليل سياسي أذكر فيه العديد من الوقائع التي باتت مكرورة، والتي سبق لي أن كتبت عنها باسم مستعار في إحدى الصحف، ولكني أعتقد أن السبب الحقيقي هو في إدراكي أن التدخل الخارجي قادم إن طال أمد الانتفاضة، فحتى دولة الرأس الأخضر في إفريقيا ستتدخل في سورية بما يتوافق مع مصالحها، إن أتيح لها ذلك.

ـ 16 ـ

تحت الحصار تغدو الأيام متشابهةً أو بشكل أدق كلها أيام عطل، ولكنها متوترة. ويصبح السؤال عن اليوم من ضمن أيام الأسبوع روتينياً، خاصة أن الاتصالات مقطوعة مما شجع على إبعاد الموبايلات. في مثل هذه الظروف يبدأ المرء بتطوير وحدات قياس جديدة للوقت، لعل أطرفها بالنسبة لي

هو تقليم الأظافر، فأنا معتاد على تقليم أظافري كل ثلاثة إلى أربعة أيام، والسبب بدأ بحكم عملي طبيباً جراحاً، ثم أصبح عادة حتى أني أشعر بضيق شديد عند طول أظافري واحتكاكها بأي شيء. وبذلك باتت أظافري مقياساً للزمن المقلّم بعناية.

ـ 17 ـ

الصبر فكرة معقدة. كنت كثيراً ما أشبّهها وأنا صغير بالغطس تحت الماء، إنه فكرة عدم احتمالك المزيد من حبس النَفَس، لكنك تقنع نفسك بالمضيّ بضع ثوان إضافية. هذا المثال سيئ لأنه يضع الاختناق نتيجة حتمية لاستمرار الصبر أو الغطس، إلا إنْ نبتَتْ للمرء غلاصم، ولا أعتقد أن الوقت يسمح بمثل هذا التطور. تخيَّلوا أن هذا الحوار الداخلي يدور في ذهن شخص يغطس الآن..

ـ 18 ـ

أعاني من الكوابيس يومياً. أعتقد أن كلمة كوابيس هنا مخيفة وإنشائية إلى حدٍّ ما، مع أنها موضوعية تماماً، السبب باعتقادي يكمن في التفارق المفترض ما بين الواقع اليومي الطبيعي والكابوس، وفي حالة الحصار هذه لا يوجد فارق كبير، إلا في ما يتصل بالتورط الشخصي في الكابوس والفانتازية الحاضرة فيه. المهم أن الأمر ليس بالسوء المفترض، فالكوابيس تتفاوت في رعبها، ولعل أكثرها تكراراً ليس مرعباً إلى هذا الحد، إنه يبدأ بغرفة ما أكتشف فيها النمل، بالمصادفة، قرب أحد أفراد أسرتي (ابنتي مدى غالباً)، أقوم بقتل نملة أو اثنتين كفعل تقليدي اشتراطيٍّ، ثم يبدأ النمل بالتكاثر، ويغيب الجميع أو بالأصح كل شيء، وأقوم بقتل المزيد من

النمل الذي يتكاثر ويحيط بي، حتى أحس بالعجز الكامل أمامه، وتضيق الدائرة التي تصبح بشكل ما قمةَ جبلٍ أو مرتفعٍ لا تسع غير قدمي.. ثم أفيق. لا أعلم تفسير الكابوس، والغريب أني لا أريد ذلك فهو كابوس من بين مجموعة نفيسة واسعة، وهو بالتأكيد ليس أكثرها فزعاً، وبالتالي أنا أفضّله كثيراً على سواه.

ـ 19 ـ

هناك مشاهد عبثية طاغية فيما يجري في سورية، أحدها أن عائلة حمصية لجأت إلى ديرالزور في بيت أحد أقاربي، الذي خرج لاحقاً من ديرالزور إثر حصارها الثاني. في أحد أيام الحصار، فيما كان الأب الحمصي خارج المنزل لتأمين بعض الحاجيات تحت الحصار (وهذا يحصل نادراً) ضربت قذيفةٌ المنزلَ، فقتلت كل من فيه، ووصل الأب ليجد الجثث فقط. سيقول قريبي المؤمن المتزمت إنه قضاء وقدر، وسيقول مُطلِق القذيفة إنه خطأ في المكان والتوقيت، فمن المفترض أن يموتوا في قذيفة أطلقت على حمص، والأب الحمصي سيُجنّ على الأغلب، وبالتالي من الصعب التكهن بما سيقول، وسيقول الموتى في الحديقة التي سيدفنون فيها إنهم سيسعدون بغرباء يشاركونهم الحديث، وقد تكون حادثة الموت فاتحةً مناسبة، أما أنا، ومثلي كثيرون، فلا أعرف ما يمكنني أن أقوله، ولكني أعتقد أن المسيح سيعيد مقولته الشهيرة «..ودع الموتى يدفنون موتاهم».

ـ 20 ـ

من العادات السيئة المرافقة للانتفاضة دخول عدد من الكلمات

المثقلة بالعنف على اللغة اليومية، مثل تصفية، وإعدام، وقتل، وذبح، وذلك أثناء الحديث عن أشخاص سيئين، لكنهم ليسوا مجرمين بالمعنى الحرفي للكلمة، فمن السهل القول إن من الضروري أن تتم تصفية فلان، عندما أنظر إلى نفسي كمستمع خارجي يدرك أن لا حول ولا قوة لي، وأني أكاد لا أقدر على قتل ذبابة في المطبخ بعد جهد وصبر طويلين، أدرك هول المفارقة.

ـ 21 ـ

قررت أن أبحث في مزايا الحصار للتخفيف من وقعه على نفسي، باعتباره عطلة طويلة يحلم بها أي طبيب يعاني من ضغط العمل، ولا أنكر أنه قد سبق لي أن حصلت على ما يشبه العطل الطويلة سابقاً، أهمها خمسة أشهر فصلت بين تخرجي وبين بدء الاختصاص بسبب بيروقراطية الدولة. عذراً على الاستطراد الطويل، ولكني أريد أن أقول إني ألعب لعبةً غير مؤمنٍ بها، لأني أعلم بشاعة الإقامة الجبرية وأن تكون عاطلاً عن العمل.

أول وأهم مزايا الحصار هو أنه يتيح لي وقتاً طويلاً مع عائلتي، وهذا ما أحرص عليه كثيراً حتى في أكثر أيام عملي ضغطاً، وثانيها أني أنهيت مشروعاً معتقلاً، وهو ديوان بدأته منذ أربع سنوات، والأجمل أني عدت للرسم ووضعت بعض اللوحات في الديوان نفسه الذي لم أفكر بكيفية نشره بعد، لأني منقطع عن العالم الخارجي، ولا أملك «نت» لإرساله إلى أي مكان. وأتيح لي أن ألعب مع مدى في المسبح الصغير الذي وضعته في مكان مخفي في الحديقة، وعدت إلى القراءة بكثافة وفي حقل الرواية تحديداً، وبدأت ألعب رياضة، ورأيت عدداً جيداً من الأفلام المميزة. وبالتأكيد معظم ما سبق لم يكن ليبدأ لولا هذا الحصار. هناك مزايا خفيفة لاحقاً مثل عدم القدرة على تصدير بعض الفواكه العالية الجودة، مما جعلها متوفرة

كثيراً كالرمان، وإحدى المزايا الجيدة مجيء مقرئ جديد صوته عذب إلى الجامع المجاور، لأن المقرئ الأصلي ذا الصوت الشنيع والمنفر نزح خارج المدينة، من سوء الحظ أنه عاد بعد فترة، فاختلط تنشيزه بأصوات القذائف.

ـ 22 ـ

عندما يشتد إطلاق النار حول البيت، يتجمع أهل البيت في غرفة أمي وأبي في الطابق الأوسط، باعتبارها أكثر غرفة محمية، وفي إحدى المرات بادر أحدنا بالسؤال، إن كان من الأفضل أن نتوزع، لتقليل عدد الموتى إن أصابتنا قذيفة، فكان رأيي أن نجتمع كلنا، فإما أن ننجو جميعاً أو أن نموت جميعاً خشية أن يُظلم قسمٌ مِنّا، فكان السؤال: أي قسم هو المظلوم: الباقون على قيد الحياة (الحياة باعتبارها قيداً، يا لها من لغة بائسة!) أم الموتى؟

ـ 23 ـ

في القصف المتوسط الشدة في وقت الفجر تقريباً، من المفترض أننا حينئذ نيام، تقلق مايا (زوجتي) أكثر مني، وتحضن إحدى طفلتينا بقلق متبادل معها، وتطلب مني أن أبقى معهم في الغرفة، فألبّي طلبها بالتأكيد، وأفكر في داخلي ماذا يمكنني أن أفعل في حال وصول طلقة؟ أنا عاجز هنا كابنتي «زينة» ذات الشهرين، أتخيَّل نفسي وأنا ألاحق الرصاصة في الغرفة وفي يدي «قتالة الذبان»..

ـ 24 ـ

يحضرني سؤال متكرر قد أسمعه من ابنتي عندما تكبر: هل كنتَ من

المشاركين في الانتفاضة؟ على فرض أنها لن تدخل في جدل التسمية «انتفاضة أم ثورة»، لا أعلم بم سأجيبها! ولكني سأقول إني متعاطف بشدة وساهمت بما أقدر عليه على عدة صعد، وغامرت بالقليل مقارنةً بسواي، وخاطرت بحياتي في مراتٍ قليلة، وخفت أحياناً أخرى فلم أغامر، لأني أحرص على أن أكبر معها.

ـ 25 ـ

قد تتداخل أزمنة الرصاص أحياناً، فهناك وقتٌ ثابت لقذائف الفجر على المدينة بشكل عشوائي، وهناك معارك الليل بين الجيش الحر وجهاز أمن الدولة، وهي أقل انتظاماً لأسباب موضوعية. عندما يتداخل الزمنان تحس بفخامة المشهد المتخيَّل وموسيقاه، فأصوات القذائف تكون كالباص لهرير الطلقات، وهنا لا بدَّ من ذكر أنه يمكن للمرء أن يتكهّن بهوية مطلق النار، فعندما تسمع طلقات ناعمة من مسدس فأنت تعلم أنه من الثوار، أو حتى طلقات الروسية، التي تغدو ناعمة أيضاً في وجه طلقات ما يسمى بالـ «ب. ك. س» الجهورية، أو بما هو أفخم كما شرح لي أخي الأصغر وهو طلقات الدوشكا، وتبقى أربيجيات الثوار كالإيقاعيات في الفرقة، إنها حفلة نادرة تنتهي بجثث تتمتع بميزة الإصغاء اللامتناهي.

ـ 26 ـ

الشرود عادة يحمل احتمالات عدة معظمها يتعلق بالهمّ، ولكنه قد يكون وسيلة للفرح أو للدفاع أحياناً، في أيام الحصار يغدو للشرود أثناء الحديث معنىً شبه وحيد، وهو التفكير في حدثٍ سيئ أو مصيبة ما يخشى صاحبه أن يشارك الآخرين فيه، ويخشى الآخرون سؤاله عنه.

ـ 27 ـ

بعد فترة ليست بعيدة من الأحداث، ومع الانعزال عن العالم الخارجي، تمسي الحوارات والأحاديث مكرورة إلى درجة منفّرة، وهذا ينعكس أحياناً على الأشخاص ويقلّل من التقبُّل في ما بينهم، ومن الواضح عدم وجود أي فرصة لانفراج قريب يتيح تغييراً ما في بنية تلك الحوارات، لذلك أُكثِرُ من الصمت وأُقِلُّ من مشاهدة التلفاز، وأدرب ذهني على الشرود.

ـ 28 ـ

«البامو» وهو تحوير عن البانيو، وهو ما تطلقه ابنتي مدى على المسبح البلاستيكي المنفوخ الواسع نسبياً، والذي اشتريته لألعب فيه معها، قبل الحصار بفترة قريبة، شكّل البامو التكثيف الرمزي لبحثي الشخصي عن الفرح، ففكرة الاستلقاء في الماء و«كرع» البيرة (في المسبح مكان لوضع علب البيرة) واللعب مع مدى، تمثّل الانتصار في مواجهة اليأس والحزن، والأهم العجز، وقد وضعته في مكان من الحديقة محمي بأربع فيلات، وبالتالي فهو آمن إلى حدود كبيرة نسبياً، مع ذلك عند اشتداد إطلاق النار يفكر أهلي بمصير سياراتنا أمام البيت، في حين أن أول ما أفكر فيه هو البامو..

ـ 29 ـ

أحس دائماً بنفور من الأخبار، وأفكر لو أني كنت خارج سورية لتابعتها بشكل أكبر. تحت الحصار وانقطاع خطوط الهاتف والجوال، يصبح التلفاز مصدر المعلومات شبه الوحيد، وبالتالي لا فرق كبيراً بيني وبين أي شخص مقيم في أستراليا مثلاً، ومع ذلك أنا أفقد نظرته السياحية إلى المجازر

باعتبارها حدثاً فريداً في مكان بعيد، ولذلك لا أقدر أن أتصالح مع متابعة الأخبار، والأهم هو إدراكي العميق أن متابعة الأخبار على مدار الساعة ليس فعلاً ثورياً على الإطلاق، إنه مجرد جلد للذات بطريقة ساذجة.

ـ 30 ـ

أفكر كثيراً في موقفي من هذه الذكريات حين انتهاء هذا الحصار، هل سأنظر إليها على أنها عمل مهم، أم أنها مجرد أفكار عامة قد تكون سطحية أحياناً، حقيقة لا أعرف، ولكني متأكد من أنها خفّفت من قلقي واكتئابي، وبالتالي سأنظر إليها بامتنان عميق.

ـ 31 ـ

هناك تناقض لم أستطع تفسيره تماماً، وهو لحظة الانشقاق، فعندما ينشقّ جندي ما فإنه ينتقل من منطقة العدو «المطلق» الذي سنفرح بهزيمته وقد نفرح بموته، بل وقد نطالب به إن نجا منه، إلى منطقة الصديق «المطلق» الذي سنحزن عليه إن مات. كل هذا الانقلاب يأتي عبر لحظة واحدة هي لحظة إعلان الانشقاق، مع العلم أنه من الممكن أن يكون الجندي قد قرر أن ينشق ولم تتح له الفرصة المناسبة بعد، وإن قتل سيفرح الناس (الغالبية المطلقة في ديرالزور معارضة للنظام) بمقتله ولن يعرفوا أن عليهم أن يحزنوا لخسارة رفيق لم يُكمل انشقاقه بعد. في أي نقاش حول هذه الفكرة يذهب الجميع إلى تحميل النظام المسؤولية عن هذا اللبس، وأنا أفكر دائماً أن الأمر ليس في من يتحمل مسؤولية هذه الكارثة فقط، بل في المضيّ فيها دون تفكير أو حتى حزن.

ـ 32 ـ

حلمتُ بأني ذهبت فجأة إلى مشفى النور لأن عيادتي مكتظّة بشكل كبير، وعندي سكرتيرة جديدة، ثم اكتشفت أني بتُّ فيما يسمى بالساحة الخلفية للمشفى (غير موجودة في الواقع)، وهي أشبه ما تكون بساحات معسكرات التدريب الجامعي، وأني أتحدث إلى شخص يفترض أن يكون معارضاً لأكتشف أن له علاقات قوية مع النظام، فيملؤني شكّ في أني تورطت مع مخبر، ثم أكتشف أني في باحة معتقل، وأن مُراهقةً شديدة السمرة تحمل رشاشاً ذا فوهاتٍ عديدة (إنها صيغة ساذجة للتعبير عن قوة الرشاش) تقتل البعض وتخيف الآخرين، وأنا مرتبك من ضرورة اعترافي بأني خائف عبر الركض مع الهاربين، وأحاول التواصل معها دون جدوى، جوهر الفكرة أني لست متيقّناً أبداً إن كنت معتقلاً أم لا، لأني قبل دقائق كنت في عيادتي ويفترض أني في باحة المشفى الخلفية، لاحقاً تم الاتفاق على أن أعمل كطبيب للمساجين، وأجريت عملية ناجحة لمسن، فقاموا بتصوير المشهد لاستثماره إعلامياً، ثم أُعدم المريض على سرير العمليات.

ـ 33 ـ

أيقظني زعيق الطيارة الخارقة لجدار الصوت (فكرة الجدار وخرقها عنيفة فعلاً رغم أنها شاعرية)، لم أعرف بم فكرت وقتئذ، فكّرت بما يشبه حيواناً أسطورياً يقترب، قد يكون متألماً، هذا الزعيق مرادف للألم حتماً، لا أفهم هذا التناقض، فالمقصود بخرق جدار الصوت إرعاب الناس وليس إثارة شفقتهم.

ـ 34 ـ

أخطر وقت للقصف بالقذائف في شهر رمضان يبدأ قبل موعد الإفطار (والذي كان سابقاً يُعلَن بطلقة من مدفع «مسالم»)، وله ما يقابله في وقت أذان الفجر، إنه تذكير للناس بوجبات الرعب اليومي.

ـ 35 ـ

كثيراً ما يحزنني أن تعتبر ابنتي مدى وعمرها سنة ونصف إطلاق النار، الذي تسميه «طأطأ»، أمراً موجوداً في الحياة الطبيعية، إنها لا تسأل عنه بقدر ما تتحاشاه، كعادة الأطفال حين يتعاملون مع الأشياء كموجودات، لأنهم ببساطة لا يملكون القدرة على المقارنة، ولا يملكون القدرة على الدفاع أحياناً إلا بالتجاهل.

ـ 36 ـ

أعتقد أن طقس الحلاوة الجديد يستحق التأمل، إنها أكلة لم تدخل منزلنا لسنوات. في الثقافة الشعبية الحلاوة مقرونة بأخذها للسجناء، وبالنسبة لي الحلاوة والزيتون أكل يومي في معسكرات التدريب الجامعي، بكل الأحوال أكلنا في الشهرين الماضيين كمية من الحلاوة لم نكن لنأكلها في عشر سنين، ولا أدعي أن السبب هو قلة الطعام، لأننا لا نعاني من ذلك فعلياً حتى الآن، قد يكون لقلة الحلويات دور، ولكني أخشى أن السبب أننا في أعماقنا ندرك أننا سجناء ونتمثل عالمهم.

ـ 37 ـ

أكثر ما أفتقده هذه الأيام هو تلك الرائحة الغامضة لبعض الورود، أقصد بالتحديد تلك الورود الصغيرة التي لا أعرف اسمها (بالتأكيد لها أسماء ولكنها غير شائعة)، والتي تنبت بشكلٍ عفوي بين حشيش الحدائق، إنها رائحة غير مميزة لأنها تصدر عند فرك العشب الضار (يا لها من تسمية مرعبة أن تحكم على جنس كامل من العشب بأنه ضار، إنه يبدو كحكم إيديولوجي)، بغض النظر عن ذلك أنا أفتقد تلك الرائحة في الليل تحديداً (قد يكون السبب أني لا أجرؤ على الخروج إلى الحديقة ليلاً بسبب شدة القصف)، تلك الرائحة المغرقة في لا تميّزها، في عموميتها للعديد من الورود المسماة بـ «ورود زينة» باعتبارها عقيمة، لأنها عاجزة عن أداء دورها الأساسي وهو إنتاج العطر، أجل أشتاق إلى الورود العقيمة في ليل الحديقة (حديقة الاتحاد النسائي)، وأنا أجثو على الأرض بشورتي القطني وأطرافي النحيلة وحذائي الرياضي وعمري ذي السبع سنوات.

ـ 38 ـ

تحت الحصار أحس بعبثية الفكرة وأنا أشرح لابنتي (التي تجد صعوبة في تصديقي) أنه توجد طيور لا تقدر على الطيران، كالدجاجة.

ـ 39 ـ

اليوم خرج رياض حجاب رئيس الوزراء السوري المنشق (الذي كان من صلب النظام لعقود وتقلّد العديد من المناصب الباذخة في عهرها من رئيس اتحاد طلبة إلى أمين فرع حزب إلى محافظ مرتين، والذي له فضل إرسال عناصر لضربنا في اعتصام قديم قبل الانتفاضة) بخطاب بليد يبدأ

بـ «يا أبناء شعبنا الأبي»، لم يترك سخافته البعثية حول الشعب والاستقرار والتقدم، وإنما منحها بعداً دينياً مع بعض الآيات وبعض العبارات، أخشى أنها ستكون رطانة المرحلة القادمة.

ـ 40 ـ

من الأشياء المحزنة أني اكتشفت أن المثقفين في سورية لا يعرفون الشعب، كنا نملك تصوراتٍ عامةً واختزالات وتعميمات مريضة حول الناس، وكنا نكرر هذه التحليلات فيما بيننا لتتحول إلى نتائج حاسمة تتأكد بالتكرار وليس باختبارها، جاءت الانتفاضة من دوننا ولم نجارها ولم نقدر على التأثير فيها بشكل عميق، ولهذا نحمل خوفاً عليها ومنها في بعض الأحيان.

ـ 41 ـ

الاسم المستعار غوايةُ حريةٍ مفترضة في قول ما تريد دون تبعات، لقد كتبت باسم مستعار فيما سبق، وسخرت من الرقيب الداخلي فيّ، الأمر لا يحمل ألق أزمنة سابقة حيث يحمل فيها الاسم المستعار مسحة رومانسية، ولكني اضطررت له بسبب وعورة الموضوع، ولكني اكتشفت للأسف أنه موجود في بعض جهات النشر أيضاً، فقد تم حذف ما كنت أخشى ذكر اسمي بسببه..

ـ 42 ـ

«العلماني السنّي» و«العلماني العَلَوي» مقولة أطلقها بعض المثقفين السوريين من باب السخرية من المواقف المتشددة للمثقفين، وللتدليل على

أن علمانيتهم غير أصيلة (قرأتها أول مرة في مقابلة مع النحات مصطفى علي نشرت في السفير). أعتقد أن الأمر لا علاقة له بالأصالة، بقدر علاقته بالبنية الاجتماعية أو المحيط الحيوي للمثقف، والذي يتجلى في معطياته الأولية في التحليل.

كلنا يعلم وجود الأزمة الطائفية في سورية قبل قيام الانتفاضة، ونتحاشى الاعتراف بها بعد الانتفاضة خشية تطييف الأخيرة، كل الخلاف بين العلمانيين مبني على الخلاف في ترتيب الأولويات بين إسقاط نظام ديكتاتوري وبين منع حرب أهلية، أستطيع بهذا السياق أن أنظر إلى عبارة «علماني عَلَوي»، دون تلك السخرية، وأستطيع أن أفهم خوفه المزدوج. العلمانية ليست إيديولوجيا، والعلمانيون ليسوا حزباً لينقسم، ومشكلة الأقليات عميقة بين الطائفية وغياب مشروع للانتفاضة ينقلها إلى ثورة تجمع الناس باعتبارهم مواطنين، لهذا تأتي مواقفهم واختياراتهم مغايرة للعلمانيين من الأكثرية السنية.

ـ 43 ـ

صُعقتُ عندما علمت أن أحد الأطباء (طبيب عيون أيضاً) لم يعلم أن والده قد توفي في القصف ودُفن في إحدى الحدائق القريبة، إلا بعد أربعة أيام، لأنه ببساطة محاصرٌ وفاقد للكهرباء والماء والهاتف والجوال، والآن أضيف إلى ما سبق والده.

ـ 44 ـ

أصبح دفن الشهداء في الحدائق عرفاً لأسباب لا يصعب توقعها. بعيداً عن هول الكارثة، لو خُيّرتُ في أن أُدفن في مقبرة أو في حديقة لاخترتُ الحديقةَ وأطفالَها.

ـ 45 ـ

لم أتصالح في يوم من الأيام مع دير الزور، مدينتي (الأم)، كما يقال، فلست ممن يتغنون بمدنهم ولست من هجّائيها أيضاً، أتعامل معها ببرود شديد. كثيراً ما كنت أدافع عن فكرة الانتماء الحسي أولاً وليس الإيديولوجي، ولطالما قلت إني أنتمي إلى دمشقَ أولاً، باعتبارها المدينة التي شهدت أهم سنوات حياتي وتطوري. وفي هذا السياق أنا لا أنتمي إلى حماة، لأني لا أعرفها فعلياً، وأحس بانقباض تجاه حلب رغم زياراتي القليلة، التي ليس لي أن أدعي أنها غير سارّة. بعد الانتفاضة لا بدَّ من أن أعترف أني بدأت أغيّر من نظرتي تجاه مدينتي الأم، لا أفترض أبداً أن العقلية العامة قد تغيّرت وأن العُقَد التقليدية فارقت الناس، لكن مع ذلك هنا ما يشبه الفرصة الثانية للبدء من جديد.

ـ 46 ـ

الأمل الوحيد الذي يصيبني أثناء حضور جنازات الشهداء، قبل بدء هذا الحصار في موجة العنف والتديّن، هو مجموعة الطلاب الصغار، الذين يملكون وعياً مفاجئاً وتمرداً أصيلاً على الشعارات الدينية، بل ويملكون جرأة مقاطعة المقرئ، ويحرصون على شعارات ترفض الطائفية، هؤلاء هم أمل هذا البلد الفعلي، على طراوة وعيهم.

ـ 47 ـ

سلوك الناس يبدو غريباً فعلاً، فتحت ضغط إدمان الأخبار، يصبح التعامل مع منظر الجثث الحقيقية والرؤوس المفتوحة والصدور المثقّبة والأطفال الشاحبين أو بقاياهم أمراً مقبولاً، في حين أن مشهداً بسيطاً من

فيلم، أقل من أن يقال عنه إنه فيلم رعب خفيف، يثير الاستياء، إنها مفارقة لا أفهمها بوضوح، مازوخية غريبة تطغى على الناس وكأنها تطهّرهم من إحساسهم بالذنب لعدم مشاركتهم في الانتفاضة.

ـ 48 ـ

لدى زينة عادة ألا تنام إلا أثناء حملها والمشي بها، إنه أشبه بـ «النظام المنضم» ولكن الضابط هذه المرة في حضني.

ـ 49 ـ

بعد بدء الحصار بعشرة أيام تقريباً لم يتبقَّ لدينا أية فواكه، فغدت العريشة في الحديقة أمراً هاماً مع عناقيدها الوليدة (في مرحلة الحصرم). قطفنا بعض الحبات القليلة الملوّحة بحُمرَة خفيفة كأثر لبدء النضج، وخصّصناها لمدى، بدا الأمر غريباً إذ إن العريشة تعتبر فقيرة وعناقيدها صغيرة الحب، بمعنى أنها أقرب إلى المراهقة، ومع ذلك أمست نوعاً من الحماية. مع الوقت بدأت العصافير بأكل العنب والحبات الناضجة تحديداً، مما وضعنا في موقف التصادم معها، ولم تُجد فكرة الفزاعة التي تخيّلتها، لأنها قد تكون فزاعةً لقناصي أمن الدولة مما سيجعلهم يردّون (الشخص الخائف أو الفزع هو الأكثر أذى بشكل عام). التناقض تراجع تلقائياً لأننا تمكنّا من الخروج بخوفٍ كبيرٍ فجراً لشراء بعض الحاجيات من سيارات جوالة، واكتشفنا لاحقاً أن بعض مقاتلي الجيش الحرّ يوزعون الخبر والبندورة والخيار مجاناً على الناس في المنطقة، ولم يصلوا إلينا بسبب قربنا من أمن الدولة، أما بالنسبة للعصافير فما دامت تشاركنا الطلقات والقصف، فمن حقها أن تشاركنا العنب.

ـ 50 ـ

أول ما لفت نظري عند خروجنا الأول أثناء الحصار هو سيطرة الكلاب والطيور على الشوارع. من السهل توقع كثرة الكلاب الشاردة لأن الهضبة القريبة التي تحيط بالمنطقة والتي تعتبر سكن الكلاب باتت محتلةً من مدفعية الجيش النظامي، وبالتالي من الطبيعي أن تتجول الكلاب في مناطق أخرى، خاصة إن كانت خاوية، لكن الغريب فعلاً هو تلك الثقة الغبية لطيور الحمام والدوري بأنها امتلكت المكان، وأنها نسيت فجأة تاريخ خوفها الطويل معنا نحن: بني البشر. الأمر مدهش فعلاً، فأنا أمشي في الشارع الفارغ بين مجموعة طيور تتحاشاني كما تتحاشى حجراً يتحرك، وكأني جُردّت من امتياز تفوقي كإنسان، لقد باتت سيدة للمكان بحكم كثرتها وبحكم قلة خوفها أمام هول خوفنا. فكرتُ لو قلّدت مواء القطة لكنت أكثر قوة بنظرها أو.. أكثر بؤساً. بكل الأحوال كنت سعيداً بالفكرة، فكرة قدرتها على نسيان منعكساتها الشرطية، يبدو أن القذائف قصفت خوفها، شجاعة خرقاء أصابتها لا بدَّ أنها زائلة، ولكن وجودها يستحق التذكر والاحتفال، إيمان بأمل الحضور ككائنات متساوية في شارع تملؤه الزبالة حتى أنها تمنع سير السيارة، فنضطر إلى المشي على أقدامنا، مثلنا مثل الطيور، لكن دون اطمئنانها. يبدو أننا تحت الظلم نتساوى ظاهرياً على الأقل.

ـ 51 ـ

قلق حقيقي أصابني عندما سمعنا عن إمكانية استخدام النظام لأسلحته الكيماوية والجرثومية، لم أفكر في حقارته ووحشيته، فهذا تشكٌّ مفروغ منه، فكرت بمصيرنا، وحاولت القراءة عن تلك الأسلحة للبحث في أي شكل ممكن للحماية منها، فاكتشفت أن دناءة الإنسان قديمة لدرجة استخدام السلاح الجرثومي منذ ألفي سنة قبل الميلاد في الهند، عبر

قصف مدن عدوة بجثث حيوانات قتلها الطاعون، والأسوأ أني اكتشفت أن سبيل الوقاية الوحيد من السلاح الكيماوي هو الأقنعة. وبعيداً عن استحالة امتلاكها، فأنا لن أقدر على وضعها على رأسَي مدى وزينة، ما زلنا تحت التهديد ولكننا نتناساه ولا نذكره فيما بيننا، لعجزنا، لا لأي شيء آخر.

ـ 52 ـ

من الأشياء التي تستفزني فعلاً هو إطلاق نار لا معنى واضح له، ففي لحظات هادئة تأتي طلقة أو طلقتين تقطع الصمت، وأحياناً رشق طلقات من جهة واحدة وبرتابة توحي بعدم وجود انفعال لدى مطلق النار، والأهم أن الإطلاق يأتي من جهة واحدة هي جهة أمن الدولة، هل هو عواء ذئبي أم تقليد له بسبب الوحدة؟ هل هو صراخ لإثبات الوجود أو للتذكير بالخوف لدى الناس؟ أم هو بسبب الخوف لإبعاد المقاومين؟ أم هو طريقة للاحتفال بشيء يعبر في البال (هناك مصطلح تجذّر في الخطاب اليومي، وهو «إطلاق نار عرايسي»، أي مثل ذلك الذي يحصل في الأعراس). حقيقةً لا أعرف السبب، لكني أتوتر أحياناً بسببه أكثر من إطلاق النار الحقيقي..

ـ 53 ـ

العريشة تفاجئني ببدء موجة جديدة من تفتح أوراق غضة بين أوراقها اليابسة، التباسٌ ربيعي جميل فعلاً، أنا أُمّيٌّ بخصوص النباتات، ولا أعلم ما إن كان تفتح الأوراق في النصف الثاني من آب طبيعياً، ولكن فكرة الالتباس أكثر إغراءً، بكل الأحوال.

ـ 54 ـ

بعد مجموعة طويلة يومية من الكوابيس، أفيق من بعضها وقلبي يجري بأقصى سرعته في صدري، توصلت إلى نسف فكرة الموت الهانئ أثناء النوم، إذ يصبح الموت نوماً طويلاً عذباً دون ألم، وأتساءل: ما الفرق بين الجلطة أثناء الحلم أو في الحياة الواقعية؟ الألم نفسه إن لم يكن أشد في الكابوس بسبب سماته الما ورائية. إنها فكرة محزنة فعلاً، خاصة أنها منطقية، فكرة تجرّد الأحياء من بعض تصالحهم مع الموت، ولا تؤثر على الأموات.

ـ 55 ـ

آخر كوابيسي فيه تجديدٌ فِعليٌّ، إنه يبدأ في منزل أشبه بالقصور القديمة بكل أبّهتها ولكن بألوان كامدة، المنزل على مرتفع وأمامه ما يشبه الوادي تقبع فيه المدينة، وفي الطرف الثاني مرتفع يبدأ منه قصف الصواريخ نحو كل أحياء المدينة بشكلٍ وحشي. فجأة أصرخ للجميع: «انبطحوا!» لأني أرى صاروخاً مباشراً يأتي نحونا عبر النافذة، وللحظ فإنه يصطدم بالجدار الذي صمد بشكلٍ مفاجئ أمام سيل من الصواريخ. انتقلنا زحفاً إلى صالونٍ فسيح، فرأيت من النوافذ مروحيّات ينزل منها عدد من الجنود بلباس أسود (لا بدَّ أن هذا من تأثير أفلام الأكشن)، ويسألون عن كاتب اسمه عبدالوهاب عزاوي، خالجني شعور مختلط بالسعادة لأني عرفت أنهم يريدونني تحديداً، وبالتالي هناك نوع من الاطمئنان على أهلي وابنتيّ، وخوف شديد لأني المطلوب. كانوا يتحدثون إلى شخصٍ لا أعرفه، في غرفة مجاورة في المنزل الذي يبدو أنه واسع كمتاهة، أنا محاصر من كل الاتجاهات ولكنهم لم يروني بعد، أستطيع دون أي استغراب أن أمضي نحو الخلف باتجاه الجدار لأسقط في ما يشبه النفق الواسع الذي يشبه

متوازي مستطيلات (ودون أي استغراب أيضاً) بين الأرضية والجدار، ثم أمضي لأختبئ (وهنا يأتي التجديد) في علبة مرتديلا أسطوانية، تفتح أساساً كما تفتح علبة التونة، ولكني طوّرت لها مدخلاً خاصاً يشبه السن لفتحها وإغلاقها، دون أن يبدو عليها أنها مفتوحة، هناك طبقة عليا من المرتديلا سليمة، وأنا أقبع في طبقة وسطى فارغة وتحتي طبقة مرتديلا ثالثة، فتش الجنود كل شيء، وفتحوا علبة المرتديلا ولم يكتشفوا أني في الطبقة الوسطى منها، فنجوت، للكابوس نهاية مفرحة قد تكون مكافأةً لحلّيَ الفريد من نوعه.

ـ 56 ـ

أعتقد أن الكابوس السابق ناجم عن متغيّر جديد، إذ حصل اليوم قصف لأحد المنازل القريبة جداً منا، فاحترق المنزل، وانتشر عدد من القناصة، وقَتل أحدُهم شخصاً في المنطقة، وعندما حاول أن يسحبه شخصٌ ثانٍ قام بقنصه أيضاً، وبعد وقت قنص شخصاً ثالثاً فوق الشهيدين السابقين، الأمر عبثي تماماً ومهين لأقصى الحدود، ولا بدَّ من ذكر أن عملية اليوم انتقامٌ لأحد عناصر أمن الدولة الذي وُجِدَ مقتولاً ومرميّاً في «خرابةٍ» قريبة جداً، إنه عقاب للمنطقة وتطويع لها.

ـ 57 ـ

قد تكون اللغة مدهشة أحياناً، أنا لا أتحدث عن مجازات لغوية (أو إكليلية) فاحشة العذوبة، وإنما عن اللغة البدائية التي لم تخضع للقوالب بعد، عن لغة ابنتي (مدى) المتقدمة بالنسبة لعمرها (عام ونصف تقريباً)، إنها تخلط ترتيب الكلمات وتخطئ في الضمائر، ولكنها قادرة

على تركيب جملة من ثلاث كلمات، والأهم أنها متجرئة بقوة تجاه اللغة. ذات مرة في الفجر، كانت تبكي عاجزة عن العودة إلى النوم (وهذا طبع ورثته مني)، كانت تبكي بحرقة في حضني، وأنا أقبّلها بلطف وأقول لها: «إنت حبيبة بابا!»، فترد بعد وقت: «حبيبة إنت بابا»، إنها تحس أن كلمة حبيبة هي الأهم، لذلك تضعها في أول الكلام، ثم تعيد ترتيبه كيفما اتفق، إنه خطأ عفوي وقد يقوم به كل أطفال العالم، خطأٌ يستحق الاحتفاء به حيثما وقع.

ـ 58 ـ

لطالما كانت فترات الوحدة حقلاً واسعاً للذكريات، والأهم حقلاً لتصفية الحسابات معها بحسب الأقدمية، مع الأخذ بعين الاعتبار السير نحو الخلف تدريجياً، أي من الحديث نحو الأقدم، ولعل مرحلة الاختصاص في مشفى العيون الجراحي لأربع سنوات من أكثر المراحل حضوراً، مرحلة طويلة سبق أن تجاوزتُها مع العودة إليها أحياناً، بؤرة للسلطة، فلطالما كان اختصاص العينية يمثل امتيازاً لأبناء السلطة، سواء في مشفى المواساة أو في مشفاي أو في مشفى تشرين العسكري، ولا يقدر أحد أن ينسى أن بشار الأسد طبيب عيون (نظرياً). المهم أن تصفية الحسابات القديمة، ولو وهمياً، أمر لا يغادر اللاوعي، وقد يتآمر الإنسان مع نفسه ليخوض حرباً في نسف تلك الذكريات واصطيادها وإعادة تشكيل المشهد، مع التركيز على تفاصيل بعينها لتغيير القيمة المعنوية للأحداث، وانتقاء أحداث مضادة لتبرير بعض السلوكات والمواقف. الأمر فيه الكثير من اللاحيادية، وأنا في المشهد قاضٍ فاسد، الانتفاضة السورية تغيّر من القيمة المعنوية لتلك المرحلة وتهين ضمناً شخوص السلطة، تذلّهم وتسحق مرجعياتهم البغيضة لتتركهم مجرد بشر عاديين. لم أمارس أي فعل انتقامي في

حربي، وإنما حاكمتهم من ذواتهم، ولم أكن «الرصاصة التي تسير في الجدار وتقتل بصمت ودون ألم»، (هذا مقطع من نص قديم كتبته عن تلك المرحلة لم أنشره من قبل)، أتذكر هنا سرداً عميقاً لكونديرا يحلل فيه تصفية الحساب مع الماضي بفكرتين، الأولى أنه لا مجال لإصلاح أخطاء الماضي، لا بالانتقام ولا بالصفح، والثانية أن مصيرها النسيان بالمعنى الجمعي. تحضرني فكرة أخرى من فيلم انتهى فيه زمن السحر لأن الناس قرروا نسيان السحرة، النسيان فعل انتقامي أيضاً ويوجع أكثر من الانتقام الذهني، إنه مرادف لإلغاء الوجود، للانقراض كفصيلة، ويمنح الفاعل سمة الخير، إنه قتل دون تلويث اليدين بدم القتيل، ودون تركة القتل من صور يظهر فيها القتيل بعينيه اللتين تفيضان بكلام لا نهائي، قتل مفرط النظافة، لعل هتلر كان يفكر في تجسيد مادي للنسيان عندما ابتكر المحارق. أعلم أني أنجرف في استطرادي ولكني أعلم أن نسيان أعدائي (أو ما يفترض أنهم أعدائي) يحمل خطورة عالية في نسيان نفسي، أو جزء من حياتي يمتد أكثر من أربع سنوات، إنه محوٌ جائر يتساوى فيه القاتل والقتيل، لذلك لن أنسى لأني أقل قسوة من ذلك، وسأمرغ تلك الذكريات في الوحل، وسأنتصر، فعلينا ألا ننسى أني أصطاد في أرضي، وأنا أمتلك العديد من الأسلحة في وجه خصومي العاجزين ضمناً لأنهم في أرضي، أنا أعلم أني لست مؤذياً، وكل ما في الأمر شرود وابتسامة ماكرة، وقلقٌ غائر، وأمل. أفكر أحياناً لو ينقضي هذا الحصار سأعود للحياة، لفركها بين الأصابع، لتمريغ الوجه فيها، وللضجر، والنقّ المنعش. «الحرية قيد أوسع!» هذه عبارة لا بدَّ أن قائلها كان مقيّداً، بكل الأحوال الحرية مساحة اعتقال أوسع، وهي بالتالي نسبية، وهذه النسبية تختلق نسبيةً موازية في التعامل مع الذكريات.

عندما كنت صغيراً كنت هاوياً للشطرنج بطريقة غريبة، حتى أني كنت أقضي ساعات أحياناً ألعبه، ولكن مع نفسي حصراً، وذلك في بضعة أشهر قضيناها في دمشق أثناء اعتقال أبي، كنت مسحوراً بفكرة التغلب على ذاتي أو تغلب ذاتي عليّ بانفعالٍ طفولي. بعد زمن، لم أعد أتقبّل الشطرنج لأني أبحث عن لعب «أكثر جسارة» (كما تقول إحدى شخصيات غابرييل ماركيز)، حتى أني طورت موقفاً سلبياً منه في سنوات شبابي اللاحقة باعتباره مرض الغرف الهادئة لأشخاص يتعثرون في الكلام، ولكن بصدق ما زلت أحس بمحبة نحو فكرة اللعب مع الذات، بنوع من التمتع بالتحكم في حيوات القِطَع، إنه أشبه بمسرح دمى، أو بحقل للعالم الداخلي وليس صراعَ عقلين، لذلك لم أطق لعب الشطرنج مع أحد، بل كنت أنظر بازدراء إلى أغبياء يتعلمون بعض الخدع ويتباهون بها في اللعب مع سواهم، إنه نوع من الذكاء المسروق الذي لا ينجح إلا في سحب تركيز الخصم لينصبَّ على غباء السارق.

في الفترة الماضية كثيراً ما شردت في شخصية البيدق/ الجندي، ذلك المسكين الذي يفتتح الحرب ويكون أول ضحاياها، وكثيراً ما يُضحى به باستهتار وبشكل مقصود، إنه «وقود المعركة» الأول، الصرخة الأولى، تحمية القتل المجاني، قطعة فائضة في هندسة ديكور اللعبة، أقصى طموحه أن يصبح وزيراً (في ثقافات أخرى يسمونه ملكة، وهذا أجمل وأكثر درامية، جندي يتماهى بملكة)، ولكنه يتحرك معصوب العينين إلى الأمام فقط ليُقتَل بسذاجة، ومن المضحك في اللعبة أن الملك وهو أهم قطعة، لا يزيد في قوته القتالية كثيراً عن البيدق، نستطيع أن نقول إنه أضعف قطعة في اللعبة باستثناء البيدق، وفي هذا إهانة إضافية للبيدق، لأنه في حال كان الملك أضعف قطعة فهذا منطقي لأن بقية القطع تهدف إلى حمايته، لكن من وضع قوانين اللعبة كان أكثر خبثاً. أفكر أحياناً في الرأي القائل بمنشأ

اللعبة الفرعوني، أليس من المهين والمسلّي في آنٍ واحد أن يكون الملك (فرعون ـ الإله) بهذا العجز، وتضعف هذه المفارقة في رواية المنشأ الهندي أو الصيني، ولكنها لا تفقد جوهرها، ويظل البيدق الوفيُّ يجري ككلب منزوع الأنياب مغلق العينين نحو مصيره المحتوم، باسم الملك الغارق في بلادته. أليس من الممتع أن نتخيَّل ثورة البيادق على «أسيادها»، هل توجد بيادق مسيّسة، أتخيَّل بيدقاً شيوعياً مميزاً في نحته (فلنقل إنه يشبه غيفارا) ليوحّد كل البيادق من الطرفين وليخوض حربه ضد الملكين معاً، بشعار «يا بيادق العالم اتحدوا»، ستنتهي الثورة بالفشل حتماً لفرق القوة اللامنطقي بين الطرفين، ولكن أليس موت هذه البيادق شبه محتوم أصلاً، ألن يكون موتها على هواها أكثر منطقية.. ومتعة، وأقدر أن أسميها بحسب أيامنا بيادق منشقة، هذا ما كان يسحرني في لعبة الشطرنج قديماً، الحياة في الأحجار..

ـ 60 ـ

اكتشفت أن لغتي تغيَّرت بعمق بين المقاطع الأولى في هذا العمل وبين المقاطع الأخيرة، هناك انتقال من اقتضاب في تسجيل فكرة ليس أكثر، نحو كتابة مسهبة فيها استطرادات. لا بدَّ من إعادة النظر في جميع المقاطع لاحقاً، لأني لم أراجع أياً منها حتى الآن، تاركاً النصوص كمسوّدة. التغيّر الحقيقي ليس في لغتي، إنه في انتباهي لعالمي الداخلي بالدرجة الأولى، في حضور الكتابة في كل لحظة، في تحولها إلى طريقة للتعامل مع العالم، وليس الاكتفاء بالحوار الداخلي. هناك العديد من المقاطع التي فكرت فيها ولم أتذكرها حين عدت إلى اللابتوب، وهناك مقاطع لم أجرؤ على كتابتها، كنت قد قررت أن أكتب كل ما في ذهني كيفما اتفق، أن أترك العمل يتطور وحده دون تدخلات قصدية مني نحو توجيهه إلى شكلٍ معين، ولكني الآن أشعر بحيرة قد تكون عابرة.

ـ 61 ـ

أتخيَّل أحياناً إطلاق النار المستمر قربنا وكأنه حوار بين طرفين يسدان أذنيهما ويصرخان بأعلى صوتيهما، وعندما يُعنّد عنصر أمن الدولة في إطلاقٍ طويل كمرافعة لا مكان لسحب النفس فيها، صراخٌ ضجرٌ يريد أن يُخرس الجميع حتى أسياده، أقول له في نفسي إنك قد استفضت في وجهة نظرك، وصوت طلقاتك أعلى وأكثف وأكثر وجاهة، ولم يتبق إلا أن تقتنع بما تقول.

ـ 62 ـ

عندما قالت أمي لابنتي بعد قصف ما: تعالي حضّوني (إلى حضني)، أجابت ابنتي بثقة: حضّون الموئيئة (حضن الموسيقا)، وفضّلت أن تستمع إلى الموسيقا.

ـ 63 ـ

لم أستطع أن أمنع نفسي وأنا أشرح لابنتي قصة عازف المزمار الذي يقود جيشاً من الفئران خارج المدينة، من التفكير بالطريقة الطفولية نفسها (ومن منّا لا يفعل في لحظات العجز المزمنة)، حلمت بالعازف نفسه وهو يقود قطيع الدبابات خارج المدينة، وخلفها الجنود مبتسمين راقصين، ليس من الضروري أن يغرقهم، يكفي أن يأخذهم إلى الصحراء، إلى الأبعد، وإلى الأبد.

ـ 64 ـ

من الأشياء اللافتة في الحصار اعتماد مبدأ المقارنة، وذلك يترافق مع تراكم ما يمكن أن نسميه خبرة المحاصرين، من حيث التموين والهروب خارج المدينة وتأمين المال، وإجراءات الحماية الأولية، ولكن اللافت بالنسبة لي هو مبدأ المقارنة التي تتحول إلى كارثة أحياناً، إذ يسير الإنسان إلى افتراض مسار معين للأحداث، في حين أن الحصار لا يحافظ على تراتبية خطواته وعنفه. فالحصار الماضي استمر أسبوعين فعلياً، في حين يمضي الحصار الحالي في شهره الثالث، والسبب بالتأكيد وجود مقاومة شرسة في المحافظة. من الواضح أن توازناً عسكرياً ما يوجد بين الثوار والجيش، وعندي انطباع عميق بعدم رغبة النظام في التصعيد الشديد في المدينة (وهذا ما حصل لاحقاً)، فبإمكانه قطع الماء والكهرباء (وهذا قاتل)، كما بإمكانه قطع الدقيق أو بشكل أبسط قصف الأفران. أنا لا أمتدح عدم مضيّه نحو النهاية في وحشيته، قد يكون الأمر تكتيكياً (للأسف كل ذلك حصل فيما بعد) أو لأنه يحتاج إلى عدم رفع عدد الشهداء عن مئتي شهيد يومياً، احتمال التصعيد موجود في كل لحظة وإمكانات الجيش الحر محدودة وضمن المجال الدفاعي بالدرجة الأولى، أفق هذه الأزمة مفتوح على كل الاحتمالات، فالطرفان منهكان والعنف لم يبلغ مداه الأقصى بعد.

ـ 65 ـ

قلت لمايا عن فكرة لوحة فيها قدمان تنتهيان بسلاسل، وبعد تفكير قصير اقتنعت أن الفكرة بائسة لشدة مباشرتها، وفي اليوم التالي شاهدت على قناة الجزيرة الفضائية إعلاناً لبرنامج قصير جداً تظهر في نهايته لثوان، صورة لمنحوتة معدنية فيها الفكرة نفسها، ولكن معكوسة: سلسلة طويلة تنتهي بشخص. أفترض أن الفكرة التي دخلت ذهني جاءت من هذا

الإعلان، ودون أي انتباه مني، ويبدو أني عالجت الفكرة بطريقة مختلفة إلى حدٍ ما دون المساس بجوهرها. فكرت بأسى: إذا كانت فكرة عابرة في إعلان مهمل لبرنامج لا أذكر عنوانه، قد دخلت في اللاوعي بهذا العمق، لتتطور وتغيّر شكلها، فما هو تأثير المشاهد المروعة لآلاف الجثث، المقابر الجماعية، الجرحى، البيوت المهدمة، الصراخ، الدخان، اليأس، والحقد، ومئات المشاهد والأفكار الأخرى التي أحقن بها يومياً وأنا أشاهد التلفاز؟ أتخيَّل داخلي أرضاً تقصف يومياً، وفيها متاهة من القتلى، مع انزياحات مروعة (كما يقال في علم النفس)، كوابيس لا بداية لها ولا نهاية، وبعضها لا أكون فيها، قسمٌ كبير من أحلامي أكون فيها مجرد متفرج غير مرئي، لا أعرف مدى عمق الأزمة، وتسرني وجهة النظر التي تعتبر البحث في الأثر النفسي رفاهية، أمام احتمال القتل اليومي أو الأذى الجسدي المباشر، إنها وسيلة جيدة لبدء هدنة مع الذات، قد لا تطول.

ـ 66 ـ

حين أضطر إلى الغناء لمدى كي تنام، أقع في أزمة الكلمات، فأنا من النادر أن أستمع لكلمات الأغاني، لأن تركيزي دائماً يذهب إلى الموسيقا، ثم إلى جمال الصوت البشري، حتى أني أجهل ببساطة كلمات أغانٍ سمعتها آلاف المرات، والأسوأ أني لا أجد في نفسي رغبة لحفظها، لأني أستمتع باختراع مقاطع لها، كثيراً ما تنظر مدى باستغراب وبقليل من المكر، حتى أنها تكتفي أحياناً بفتح عين واحدة، يبدو أنها تعلم أني أؤلف كلاماً ما على عجل، محافظاً على اللحن فقط، إنه نوع من التواطؤ اللذيذ، الذي لا ينجح إلا في تأخير نومها.

عندما أمتدح مدى في نفسي لذكائها، أتذكر المقولة السحرية «القرد بعين أمّو غزال»، وبالفعل معظم الآباء والأمهات يعتبرون أطفالهم أذكياء حتى لو كان العكس واضحاً. أتذكر في إحدى الجولات في مشفى الأطفال (وقتئذ كنت طالباً في كلية الطب، والجولة تحوي عشرين طالباً تقريباً)، جاء دوري في فحص طفل عمره سنتان ونصف في حضن أمه، كانت أمه في أول العشرينات، من بيئة شعبية تمنحها بساطة وتلقائية محببة، تضع حجاباً كيفما اتفق وتقوم بتصحيح وضعه كل بضع ثوان، عندما سألتها عن ابنها أغدقت عليه بصفات الذكاء والنباهة (التي تلامس الحكمة) مع حشد من عبارت «سبحان الله» و«ما شاء الله» و«خزيت العين عنه»، وبسبب إنكارها لأي مرض يغدو السؤال المنطقي: لم جئت به إلى المشفى؟ بعد دقيقتين اكتشفنا أن الطفل أخرس، ثم أصمّ، مع تشوه في العمود الفقري. وقتئذ، نظرنا جميعاً إلى الأم بمزيج من السخرية والحزن، ولكني أعترف الآن أني أنظر إلى سلوك الأم بنوع من الإعجاب العميق الذي يطغى على ما عداه، أفكر في تلك الطاقة المدهشة من الحب، بذلك الأمان، فمهما كان المرء غبياً أو مريضاً أو معقداً أو فاشلاً، فهناك من يحبه، أمه وأبوه تحديداً. إنه نوع من الضمان للإنسانية، ضمان ضد الوحدة والعزلة والفشل، وضمان ضد الوحشية أيضاً. من الضروري أن يكون المرء محبوباً كي يقدر أن يحب، فالحب كالحقد معدٍ. أفكر في كل ذلك وأنا أنظر بإعجاب إلى مراوغات مدى، التي سأؤكد بضراوة على ذكائها حتى لو لم تكن كذلك، وأفكر فيه أحياناً عندما يزداد القصف، أفكر في أمهات القتلة وأمهات المقتولين، في الحب الذي يغدو عاجزاً، ومع ذلك لا يفقد قوته، بل على العكس، قوته تزداد في لحظات العجز، مثلما فعلت الأم مع ابنها الأصم والأبكم، كانت تحارب بيأس لإثبات ذكائه، لإثبات قدرته على الحياة التي لن تتقبله، لتخفيف هول الفاجعة، تدافع عن ابنها أمام طبيب عاجز، طبيب يفشل في دوره الوحيد

وهو الشفاء، طبيب لا يقدر أن يقلع ابتسامته التي تدين حبها. أحس بنوع من الخجل وأنا أتذكر تلك الحادثة، مع العلم أني كنت لطيفاً مع الأم، أحس بالخجل لأني لم أُقدّر حجم الحب والحكمة وراء تلك السذاجة المحببة، وأفكر لو نظر القتلة في وجوه أمهات الضحايا وتذكروا أمهاتهم، لترددوا في سحب الزناد، لو فكروا في أطفالهم وفي الأطفال الذين سيُقتلون، قد (أقول قد فقط) يحولون الفوهات نحو رؤوسهم، سيترددون في إطلاق النار، والأجدى ألا يفعلوا.

ـ 68 ـ

من الأحداث التي انغرست في ذهني كمعضلة غير قابلة للتفسير تلك الحادثة الشهيرة التي قام فيها مارتن لوثر كينغ بوضع العديد من الأطفال «السود» (وذُكر أن العدد وصل إلى عدة آلاف)، وبعضهم لم يتجاوز السادسة من العمر، في مقدمة مظاهرة حدث أن قُمعت مظاهرة سبقتها بوحشية من قبل الشرطة ورجال المطافئ وباستخدام كلاب تنهش الأحياء، وكانت فكرة مارتن لوثر كينغ هي عدم وجود من يقدر على أن يؤذي طفلاً حتى لو كان «أسود»، وجاءت النتيجة مرعبة، ذلك أن الكلاب نهشت الجميع، ولم تميّز الأطفال عن سواهم. تأثر العالم بصورة كلب ينهش طفلاً، مما خلق قضية دولية، اضطر على إثرها جون كينيدي إلى تقديم تنازل تجاه مطالب السود، بعد أن تهرب من ذلك طويلاً. لا أعلم أين العقدة أو ذروة التناقض في تلك الحادثة، هل هي في انتهازية أو غباء مارتن لوثر كينغ الذي استغلّ الأطفال بهذه الطريقة، مع العلم أن منشأه ديني كنسي؟ أم إن الخطأ حصل لبلاهة الكلاب الوحشية التي لم تميّز الأطفال عن سواهم، لالتزامها وانضباطها الشديد بمهامها؟ أم إن الخطأ في ذلك العالم المتوحش الذي لم يتحرك عندما نهشت الكلاب رجالاً بالغين (كانوا «سوداً» أيضاً) وتأثر عندما نهشت

الأطفال؟ إذن الأمر مجرد ارتفاع عتبة الحس، أم هو متعلق بفكرة الغرابة؟ فلو نهشت الكلاب الأطفال على مدار بضعة أشهر لتعود العالم على ذلك، أليست الغالبية القاطبة للصور التي تأتينا عن المجاعات تكون للأطفال والأمهات بأثدائهن المسطحة، الصور تبين جثث الأطفال والذباب يتسكع في وجوههم وكأن المجاعة لا تقتل الكبار، مع العلم أن الجوع أشد قتلاً من عض الكلاب، الضباع تنهش جثث الأطفال أيضاً كما فعل أبناء عمومتها من الكلاب في أمريكا، ولكن بوحشية أقل، وبألم أقل، ألا نتذكر جميعاً الصورة الشهيرة للنسر أمام طفل يُحتضر ينتظر موته ليأكله؟ الصورة نفسها التي توفي المصور بعدها بشهر منتحراً كما قيل لي. إن صدقت تلك الرواية، فهو لم يمت حزناً على الطفل، بل مات قهراً من هذا العالم المتصنع والكاذب والمتوحش. إحدى الدراسات تقول إن ما ألقته أمريكا من حبوب في البحر كان يكفي لإيقاف المجاعة في إفريقيا، أمريكا نفسها التي لم تمنح «السود» حقوق المواطنة حتى أواسط الستينيات من القرن الماضي، وأمريكا نفسها التي قامت على أكبر إبادة بشرية في العالم (112 مليون هندي أحمر)، العالم البغيض نفسه الذي قرر ألا يتدخل أمام هول ما يجري لدينا، أمام جثثنا (أطفالاً وبالغين) التي لم يميّز القتلة بين أصحابها، لعل بعضاً من المشكلة يكمن في أنهم ألفوا الرعب هنا أو تجاوزوا مرحلة الاستغراب.

ـ 69 ـ

عندما يتعرض أحدنا لإهانة أو سخرية ما غير مباشرة فإن أول ما يفكر فيه هو كيف يسيطر على أعصابه، بقصد الظهور بمظهر الشخص الصلب، كيف يخفي أنه قد أهين، إنه يفكر في ذلك أكثر مما يفكر في الإهانة نفسها، وقد يفكر في البحث عن أسرع رد يمنحه رد اعتباره أمام الخصم أو الحضور، رد يقدر أن يقلب الموقف وقد يكون في نقطة ضعف

لدى الخصم، وليس من الضروري أن يكون معنياً بالسخرية أو الإهانة نفسها التي لن يفكر فيها بعمق حتى يختلي بنفسه، حين يخلع قناع اللامبالاة أو الصلابة الظاهرية، هناك سيخرج من الأرض التي تمنى أن تبتلعه، وهناك سيكتشف الجواب الأكثر خبثاً والذي كان من الممكن أن يهزم خصمه به، وهناك ستزداد حسرته وغيظه. ما سبق يكون في الحياة «الطبيعية» أو ما يشبهها، تلك الحسرة تمسي ترفاً مشتهى في أوقات الحصار حين يصبح الرد على الإهانة أمراً مستحيلاً بالمعنى الفيزيائي، أو شجاعةً مجنونة توصل إلى الموت، كما حصل مع البعض.

ـ 70 ـ

كنت أفكر وأنا أقرأ أعمال كونديرا التي تحضر فيها المرحلة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا (سابقاً)، في الفرق بين التوثيق الحسي والتوثيق التاريخي: أليس كل ما نقرؤه وندرسه في التاريخ يتكثف في جوهر حسي؟ أليس موقفنا من الإبادة التي تعرض لها الهنود الحمر موقفاً عاطفياً بالدرجة الأولى؟ أنا أتحدث هنا عن قارئ عادي، لا عن امرئ متخصص في التاريخ أو علم الاجتماع مثلاً. أتذكر مقطعاً من رواية لا أذكر عنوانها تروي قصة إعدام لوركا، يسأله المحقق قبل إعدامه عن مقطع كتبه لوركا يقول فيه على ما أذكر: «غجرية جالسة أمام بيتها وفي يدها ثدياها المقطوعان الموضوعان على طبق»، كان المحقق يسأل لوركا بحقد عما إذا كان قد شاهد هذه الحادثة فعلاً أم اكتفى بتلفيقها (كصيغة بديلة عن الإبداع)، لم أتأكد ما إن كان المقطع للوركا أصلاً أم نُسب إليه. المهم في الفكرة أنه، بغض النظر عن كل ما قرأته حول الحرب الأهلية الإسبانية، يظل هذا المقطع هو التكثيف الأكثر حضوراً حولها، إنه وثيقة حسية قد تكون متخيّلة، لكن هنا يبرز السؤال الأصعب: هل الكاتب موضوعي أو حيادي (مع العلم

بعدم وجود حياد في الأدب، كما أن الموضوعية ليست شرطاً في الأدب)؟ من الممكن أن نداور على ذلك بتحوير السؤال: هل هناك ما يضمن أن الكاتب نزيه في نصه؟ ألم يتم اللعب في السينما لتظهر أمريكا على أنها بلد شجاع في الحرب العالمية الثانية، مع العلم أنها أجبن البلدان المشاركة في الحرب وأكثرها انتهازية؟ ألم يتم خلق صورة نمطية بائسة ووضيعة عن العرب في السينما الهوليودية؟ ولكن، من جهة ثانية، هل هناك حيادية أو موضوعية أو نزاهة في كتابة التاريخ القريب أو المعاصر أو اليومي أو ذاك البعيد؟ ألم تتحول الجرائم إلى انتصارات وفتوحات؟ ألم يُؤلّه أشخاص وأذلَّ آخرون دون أي نزاهة؟! هنا ينتهي السؤال حول التوثيق الحسي في وجه التوثيق التاريخي إلى لا شيء، إلى حالة عقم وفقدان ثقة، ومع ذلك فإنه لا يفقد غناه.

ـ 71 ـ

نَصْلُ الانتفاضة يقطع البشرية (كقالب كاتو) ولكن بقوة وثقة، جرح قاطع حاد الحواف ونظيف في المجتمع، هذا ما أتخيَّله عندما نقع جميعاً في فخ تقسيم الناس بين معارض ومؤيد. بالتأكيد، هذا خطأ متوقع في كل حالات المد الثوري، في لحظات التحول الجارفة في المجتمع، ولكنه خطأ فادح أيضاً، لأنه قد يؤذي العلاقات الإنسانية إيذاءً عميقاً وخطيراً وغير قابل للشفاء، لأن الجرح هنا يتحول إلى بتر. بعض المؤيدين يؤيدون من باب الخوف من المجهول، بسبب رغبتهم في حياة هادئة، تحت تأثير رعبهم من الاضطراب المرافق للانتفاضة، خوفاً من ذلك الجريان المضطرب، وبعضهم بسبب انتهازية ساذجة حول عمل بسيط أمّنته السلطة، بعضهم بسبب تآلفه مع الرعب وعدم جرأته على تجريب أي احتمال لرعب جديد مجهول السمات. المهم أن ذلك الجرح يتحول إلى

حاجز مؤلم يفرق بين قسمين من البشر، يُزبدون مستعدين للانقضاض على بعضهم بأسنانهم العارية، وهذا ما يخلق «ثقافة العقاب» (كما تقول مايا بتكثيف ناجح)، كثيراً ما كنت أحقد، أجل أعترف أني كنت أحقد على مثقفين شكّلوا أيقونات ثورية، أيقونات لثورة جميلة نحلم بها ولم تكن قابلة للتوقع، أيقونات يسارية مثل مارسيل خليفة وزياد الرحباني، قدمت نفسها فيما سبق بشكلٍ سياسي مؤدلج، لست قادراً على أن أغفر لهما صمتهما، في الوقت الذي تبزغ فيه أصالة نصري لتدافع عن الانتفاضة في أيامها الأولى، وأليسا، قد تكون أسبابهما انتهازية صرفة، وقد تكون ناجمة عن تعاطف صادق، بكل الأحوال أنا أثمّن موقفهما بشكلٍ عميق يفاقم صمت وتخاذل مارسيل وزياد، مارسيل بانتهازيته المزمنة وقلة ثوريته، ذلك أنه لم يكن جدياً في الدفاع عن المعتقلين في سورية سابقاً، في لزوجة تذاكيه وتصنّعه وهو يعيد عبارته الرخوة «لنوقد شمعة في الظلام»، تباكٍ ممجوج، ومحاكاة زائفة لطقس إشعال الشمعة المسيحي، ذلك السلاح القديم الذي لا يهزم، وهو يراكم ثروته ويعيد اجترار تجربته دون تجديد نوعي. إنه إفلاس قديم، وهذا رأيي قبل الانتفاضة بعدة أعوام، سقوط إبداعي تحميه تلك الأيقونة الثورية التي مثّلها في مراحل سابقة، والتي سقطت الآن (بنظر قسم كبير من المتعاطفين مع الثورة). أما زياد الرحباني فله اعتبار آخر، إنه تجسيد ممتاز للحراك اليساري الغارق في يأسه وحزنه، والذي يسخر من فشله، إنه الابتسامة المريرة أمام المأساة والمشاغبة المحببة، صراخ في وجه المدرس الديكتاتوري، وتجسيد للفشل السياسي (فشلنا جميعاً) بصورة لذيذة، لم يكن زياد انتهازياً بنظري، ولكنه غير عميق، لم أرَ في أي يوم من الأيام نضجاً سياسياً في آرائه، وهذا يبرر بعض سلوكه، ولكنه لا يغفر له تخليه عن إعلان موقفه من انتفاضتنا. أنا لا أقول دعم انتفاضتنا، لأني أتفهم أنه قد يملك انتقادات ما عليها (كما نفعل جميعاً)، لكن ما أهمية رأيك إن لم يأت الآن عند الحاجة له؟ كان

موقفي سابقاً بضرورة العقاب، أجل، من المهم أن يعاقب مارسيل وزياد، بالنسبة لمارسيل كان أفضل عقاب له بالنسبة لي مقاطعته، نسيانه، عدم الحقد عليه لأنه ليس جديراً بذلك، حتى أنه أصدر ألبوماً لم أقبل أن أسمعه (مرد جزء من ذلك انطباعي عن إفلاسه الفني قبل إفلاسه الأخلاقي)، ولكن بعد حوار مطول مع مايا أعتقد أنها قدمت صيغة أرقى، وهي ضرورة ألا يتحول العقاب إلى إلغاء، مع ضرورة عدم تبني «ثقافة العقاب»، لأن ذلك يتعمم على كل شيء، بعدم السماح للجرح في أن يتحول إلى بتر. لا بدَّ من الاعتراف أنها على حق، من الضروري تعرية مارسيل، كشف وفضح سلوكه السياسي والأخلاقي دون إلغاء وجوده، فهذا أرقى لنا. أما بالنسبة لزياد، فأنا أرثي لفشله الذي بات غير قابل للإصلاح، ولا تصلح السخرية لجعله لامعاً ومغرياً، إنه كالممثل الكوميدي الذي أدى أدوار البطولة في معارك وهمية وفرَّ حين بدأت المعركة، شخص تمتزج الشفقة مع الغضب تجاهه. ويظل السؤال الأصعب: ماذا عن الثواب؟ أنا غير قادر على سماع أغاني أصالة أو أليسا، لا قبل الانتفاضة ولا بعدها، أعتقد أنهما قد نالتا جائزتهما شعبياً، مزيداً من الشهرة والنجومية في الوطن العربي. أفكر جدياً بأشخاص مثل محمد آل رشي، وهو ممثل موهوب بقوة، ومغمور، وكلفه موقفه السياسي الدخول إلى السجن في سورية، هذا من يستحق التكريم والاحتفاء.

ـ 72 ـ

عدت إلى سماع الموسيقا أثناء نومي، إنها إدمان قديم، ألبوم يدور لساعات أثناء النوم، يتسرب كالسيروم في الوريد، وسيلة لتأثيث الفراغ بحسب هواي، وبمبالغة صادقة لم تكن الموسيقا وسيلة تصالح مع العالم فقط، بل كانت وسيلة انتقام أيضاً، إذ كنت أفيق في الخامسة والنصف

فجراً لأستمع إلى إذاعة Swiss Jazz مدة ساعة قبل أن أغادر المنزل نحو عملي، إنها ضمانتي في أني فعلت شيئاً أحبه في ذلك اليوم، ضمانة تمنع الآخرين من تحويله إلى شيء بغيض، ولكني الآن أحرص على الابتعاد عن موسيقاي الكئيبة التي كنت أهواها (أقول موسيقاي لكثرة تعلقي بها)، وأستبدل بذلك أنماطاً مختلفة يسيطر عليها الفرح، وهذا ما أفعله مع ابنتي التي تدمن الموسيقا (مثلي) منذ أشهرها الأولى، وتميز بين التانغو، والفالس، والجاز أحياناً، وتحب Yanni والـ Piano Guys، أرجو أن يكون إدماناً على الفرح وحده، المميز أنها لا تقبل سماع الموسيقا دون صورة بصرية مرافقة، دون رقص أو عزف فيه انفعال مثل حفلات Yanni، أتذكر عينيها المأخوذتين أمام رقص التانغو تحديداً، لعلي أتعلم منها الآن.

ـ 73 ـ

لا أعلم لمَ يسيطر عليّ هاجس الدونكيشوت، تلك الشخصية الملتبسة، الأيقونة الجميلة الحاضرة دائماً. إنه مقاومةٌ مليئة بالكبرياء ضد قوة طاغية، صراعٌ محكومٌ عليه بالفشل، ولكن منشأه عندنا يأتي من حضور العمالقة المجسّد، القمع وأجهزة الأمن، الديكتاتورية المتجذّرة، لا بدَّ أن أعترف أننا اعتمدنا على تأويلاتنا باعتبارها أصيلة، لم نفكر وقتئذ في أن الدون كيشوت يفقد دوره الاجتماعي لأنه يحارب في الحلم، ينفي واقعه لخلق واقع بديل، وبهذا يفقد قدرته على التغيير، يحكم على نفسه بالفشل، بحيث يغدو موته النتيجة الوحيدة والحتمية التي تكمّل نبل اختياره، حتى إن ارتدّ عنه، تكمل أسطورته المعكوسة، التي تسير نحو الماضي بدل أن تأتي منه.

لم أتمكن من التحرر من فكرة العزلة والخذلان في شخصية الدونكيشوت، حلمت بإعادة كتابته، بجعله شخصاً قادراً على التواصل، على صفع الأحياء بنبله، على تعريتهم أمام أنفسهم، لذلك جعلته أقرب

إلى الشحاذ النبيل، إلى المقاتل المهزوم في نص طويل شبه مسرحي «من أي جثة يتدفق هذا الليل» (نشر في القدس العربي). بالنسبة لي، ثيمة الدونكيشوت تعبّر عن نضالٍ دام عقوداً في المعتقل، نضال كان يُخاض من الظلمة، نضال يتمثل في الوجود نفسه لا في الفعل، عجزٌ يكتسب أسطورته من سطوة الديكتاتورية، من جعل عجزه أكثر عجزاً، وبالتالي أكثر أسطوريةً، دون أن ننسى أن وزر العجز يقع على الخصم الطاغية. هذا الجيل قدم لسورية في المعتقل أكثر بكثير مما قدمه بعد خروجه منه، لأنه، عندما خرج، خسر الكمون الموجود في المعتقل، أصبح فشله كاملاً، ولم يعد بالإمكان إلقاء كل هذا الفشل على النظام الديكتاتوري، لم يعد العجز كاملاً، وأمست القدرة على الفعل مهما كانت صغيرة كافية لكشف العيوب والتشوه والتناقض بين الفكر والفعل السياسي الذي أصاب أصحابها وفشلهم في أن يغيّروا أي شيء في المجتمع، فخبت أسطورتهم، لم يهزموا على يد «فارس القمر الأبيض» بل هزمهم الزمن، لم يملكوا تلك النهاية التراجيدية «دوليسنيه دي توبوزو أجمل سيدةٍ في العالم، وأنا أتعس فارسٍ على الأرض»، بل مضوا إلى نهاياتهم الواقعية.

مثّل الدونكيشوت عند كونديرا (في فن الرواية) حالة الاحتجاج على مغادرة الإله لعرشه وعلى تشوه العالم، احتجاجاً نبيلاً وعميقاً وصادقاً، ضد العالم نفسه. إنه الأصل الذي تتحدر منه شخصية السيد. ك في رواية المحاكمة لكافكا، حيث تمسي المقاومة النبيلة والمجنونة لدى الدونكيشوت لا مبالاة عميقة عند السيد .ك، عجزاً باذخاً أمام سطوة مجتمع قاسٍ، بصورة غير قابلة للتفسير. ويعتبر كونديرا سرفانتس مؤسس الأزمنة الحديثة بالمعنى الروائي، ويرى في الدونكيشوت تساؤلاً دائماً حول مصير الإنسان في صراعه الفردي مع مجتمعه، وبالتالي من المهم قراءته خارج إطار التحزب والإيديولوجيا، فلا هو مديح للمثالية ولا هو هجاء لها، كما لم يكن تغنيّاً بالثورية أو ذماً لها.

أفترض أن السر في الشخصية يكمن في ذلك التناقض العميق بين «سذاجتها» والسخرية التي قُدِّمت بها في العمل الروائي، وبين التعاطف الذي يتشكل معها تدريجياً، ليس شفقةً كما تقدمه بعض شخصيات الرواية (مثل ماريتورن)، إنه تعاطف حقيقي، قلق من الأذية التي ستعيقه، وهذا قد يقدم نوعاً من الإجابة عن سؤال يفرض نفسه بقوة: ما الذي يدفع سانشو إلى اللحاق بسيده «المجنون»، رغم إدراكه أن معظم ما يقوله خاطئ (والذي لا يتعارض مع طيبته وسذاجته التي تتحول إلى ذكاء لماح أحياناً في قصة الريالات العشرة عندما أمسى حاكماً للجزيرة «باراتاريا»، بسرد يشبه إلى حدٍ بعيد قصص ألف ليلة وليلة، انتهاءً بدساتير الحاكم «العظيم» سانشو بانسا الذي دخل الحكم معدماً وخرج منه معدماً)؟ جنون الدونكيشوت أقوى من سذاجة سانشو، وفي النهاية كلاهما ضحية سماجة الدوق، التفسير يكمن في أنه «يطمع بنصيب من الحلم»، من العاطفة، ومن الأمل وإن كان كاذباً، إنه يريد أن يشارك في الحلم ـ اللعبة.

غموض شخصية الدونكيشوت يوحي بفكرة تورّط سرفانتس في بنائها، إذ يبدأ في تشكيلها بنوع من السخرية مع سيطرة الضمير الغائب، حيث قضى الدونكيشوت أربعة أيام يفكر في اسم فروسي لحصانه «روسينانت»، ثم قضى ثمانية أيام ليجد اسماً يليق به «دونكيشوت دي لامانش»، بدأ بالحصان والسيف والخوذة قبل اسمه، وكأنه يبني عالم الفروسية من المحيط نحو المركز، إنه تمهّل المستمتع، تمهل من يتلبّس دور المجنون، وبعد ذلك كله قرر اسم حبيبته دولسينيه دي توبوزو. إنه يتوج نفسه بالحب ليكتمل ألقه، ويخاطبها لاحقاً كإلهة تحمي فارسها، يفكر بالحب بعد أن أمسى فارساً، بالبعد الأسطوري للحب، ومع تقدم الرواية يغدو ضمير المتكلم أكثر حضوراً، ويمسي التلبّس إيماناً بالفروسية والمغامرة، درباً يقترحه الحصان لا صاحبه، ذلك الحصان المؤمن بسيده الذي يندفع معه في المعركة على خلاف حمار سانشو، يشاركه الألمَ رغم نحوله وضعفه،

وقد يقع أحياناً، لكنهما يكملان معاً طقس الفارس الخاسر («خاسر حرب ورابح فكرة» كما كتبت في نصٍ لم أنشره بعد).

يفترض سعد الله ونوس أن شخصية الدونكيشوت دفاع عن عهد الإقطاعية الآفل أمام عصر البرجوازية الصاعد، إنه تفسيرٌ مؤدلجٌ بشكل كبير، ومع ذلك لا يمنح الاستقرار للعمل، فهل هو سخرية من الإقطاعية وقالب الفروسية المتعلق بها، أم هو مديح وتعاطف معها؟

كثيراً ما تخيّلت الدون كيشوت فصامياً، فهو يملك ذلك التوهّم الغريب الذي يعزله عن المجتمع، ولديه أهلاس بصرية وسمعية، ولكن الالتباس يظل قائماً، فأهلاسه لها أساس مادي (العمالقة طواحين هواء، والقصر أو القلعة نزل رخيص)، إنه يلتبس باضطراب الإدراك الحسي أو ما يسمى أحياناً بـ «انخداع الحس»، إنه يفسر الأمر بأن ساحراً عدواً له حوّل العمالقة إلى طواحين هواء في اللحظة الأخيرة ليُفشِل مغامرته، إنه يدرك عدم وجود العمالقة ولكنه يأبى أن يعود للواقع، إنه ينتمي إلى الحلم أولاً، لم أقدر أن أحسم إن كان فصامياً أم لا، ولا أفترض أن سرفانتس كان قد درس الطب النفسي.

بكل الأحوال لا يفقد الدونكيشوت غوايته، فكل شخصٍ منّا يحمل شيئاً منه، شجناً وأحلاماً مستعصيةً وفشلاً نتمنى أن يكون نبيلاً.

ـ74ـ

كثيراً ما كنت أمتدح الغضب بالمقارنة مع اليأس، الغضب باعتباره قدرةً على الحياة، على الصراع، حتى وإن كان مصيره محتوماً بالفشل، إنه طاقة كامنة قابلة للتحول، في حين أن اليأس نوع من الموات، الاستسلام، الجبن.

في الطب، المريض المتألم بصمت قد تكون حالته الحالة الأخطر

(احتشاء قلب مثلاً)، لذلك يجب أن يتوجّه نحوه اهتمام الطبيب أكثر من ذاك كثير الصراخ، الذي يجد طاقةً على الصراخ.

أقول ذلك وأنا أعلم أن الغضب واليأس عاجزان أمام ما يجري، وأعلم أننا نتنقل بينهما كفأر في وعاءٍ أملس، ولكني أفضل الغضب على اليأس، وليكون لما سبق أي معنى لا بدَّ لي من الاعتراف أن هذا الكلام يغدو مهماً عندما أكون في جهة اليأس (لأن مجرد التفكير فيه يحمل رفاهية المقارنة)، ولعل من أبأس الأشياء (أكثرها بؤساً) أن تنصح اليائس بالكفّ عن يأسه، أن تُعدِّد له مباهج الحياة وممكناتها، أن تعيد عليه ما يعرفه وكأنه ساذج أو خَرِف، إنه لم ينس الفرح، وهو لا يرفض الفرح أو الأمل، إنه ببساطة لا يقوى عليه، الأمل يحتاج إلى طاقة أقوى، وأعتقد أن اليأس يأتي عند شخص جرّب الأمل بشكل معقول ليدخل في اليأس بعده. قد يكون الصمت أمام اليائس أجدى من جلده بمآثر الأمل، الصمت باعتباره إصغاء عميقاً لكلام مكتوم، لن نسمعه ولكننا سنحس به، بالتأكيد أن تلغي سبب اليأس هو الخيار الأفضل، ولكنه مستحيل أحياناً، أن تعيد ميتاً إلى حلبة الحياة مثلاً، وهذا ما تدركه الأديان، إنها تستغل حاجة اليائس وعجزه، قد يكون من الأجدى أن تجد ما يشغل ذهن اليائس أو يلهيه، هذه أكثر الوسائل فعالية، تشتيت الذهن، رميه في ملاحقة مرهقة تمنع رفاهية التأمل، وتمنع تفاصيل الحياة الموجعة من التسرب إلى عالمه الداخلي. أنا أقحم نفسي بأشياء من هذا النوع عندما أصل إلى حدود قارة اليأس، وهنا تبزغ التمايزات الشخصية، في وسائل تشتيت الذهن، اللعب على الكومبيوتر إحدى هذه الوسائل، معارك وهمية لا رابح ولا خاسر فيها، السيئ في ذلك أنه يزيد من العزلة، يزيد من سماكة القوقعة التي أقبع فيها بانتظار لحظة يمكنني أن أغضب فيها.

ـ 75 ـ

بسبب حالة الأرق المعندة التي تصيبنا جميعاً من الصعب أن تجد غرفة الجلوس فارغة، وكأننا نتناوب على حراسة شبحٍ ما مريضٍ، على حراسة الفراغ من الوحدة أو الشعور بالخوف، حراسته من نفسه عبر ملئه. وبالتأكيد، للقذائف والمعارك القريبة دورٌ كبير في ذلك، ومن السهل معرفة المستيقظ من خلال التلفاز، فقنوات الأخبار والمسلسلات العربية وقنوات الأفلام تميز بيننا، الأفلام تعني أني شبح الحراسة، أفكر أحياناً بم سيحصل إن توقف الجميع عن النوم، إن أضربوا عن ذلك الموت المؤقت بكوابيسه، ماذا سيجري لو أضرب الناس عن الموت احتجاجاً على حيادية السماء تجاه ما يجري، ماذا سيجري لو أضرب معنا الميتون وكفوا عن الموت، حقيقةٌ لا أعرف، ولكن أفترض أن النظام سيسقط لا محالة.

ـ 76 ـ

منام:

قارب خشبي بمجدافين طويلين يغوصان في الطين، يتقدم القارب ببطء ولكن برشاقة لافتة، وهو يرسم خطاً مستقيماً في الطين. الوقت مساء مع هبات من النسيم تأتي بصمتٍ، المكان واسع ولا ضفة واضحة في القريب، أو لعلها موجودة ولكنها مغشاة بضباب خفيف، مساحةٌ واسعة أقرب للرمادي، غمر لا بداية له ولا نهاية، الطيور تقف على الطين الناعم المكسو بطبقة رقيقة من الماء.

ترافق القارب أفعى ملونة، تسير خلفه بما يشبه المحبة، وإلى الجانب، بحيث تظل عيناها عليه، وفي الطين تبزغ تحت الماء وجوه شمعية تختلط بالطحالب الصغيرة، ويبدو أن الطيور تُقبّل أفواه الغرقى، فيما القارب يسير بصمت، صوت المجدافين وحده يأتي شبه منتظم..

في القارب شخص بثياب رثة وقبعة من قماش، إنه أشبه بفزاعة تخلّت عن دورها في إخافة الطيور، فلم تعد تفكّر إلا في العبور بين ضفتين غير مرئيتين..

أنا مجرد متفرج خارجي.

ـ 77 ـ

من المعلومات التي فاجأتني هي إنشاء الجيش الحر لمحكمة وسجن في منطقة الجبيلة في ديرالزور (تبيّن لاحقاً أنها في الحميدية)، الأمر مربك، وبقدر ما هو مفرح ومبشر بقدر ما يقلق، فكرة نواة لضبط المجتمع في حال سقوط الدولة (مع العلم أن الدولة أداة قمع لتنظيم المجتمع)، لكنْ من سيكون القاضي وما هي القوانين المطبقة، قيل لي إن من يتسلم منصب القاضي هو شخص على علم بالقانون (تبيّن لاحقاً أنه ليس قاضياً أو محامياً بل شيخ ما)، وعندي معلومة سابقة بوجود عدد من المحامين يعمل مع الجيش الحر، لكن يظل السؤال مفتوحاً، من يطلق الأحكام؟ وهل هناك نوع من الرقابة على القاضي؟ ومن سينفذ الأحكام؟ ما هو السجن الجديد؟ ولو فرضنا أنه حكم على سارق ما بالسجن عاماً، أين سيقضي هذا العام؟ من سيطعمه خلال تلك الفترة؟ هناك عشرات الأسئلة التي تجول في ذهني، وتخلق حالة متناقضة بين الكمون العالي للفكرة مع الأخذ بعين الاعتبار تفاني الجيش الحر في حماية السكان على كل الصعد، وبين إمكانية تطبيقها، إذ إن القضاء يقع في رأس هرم مؤسسات الدولة وهو بحاجة إلى نضجٍ عالٍ أشك في الوصول إليه، فلو قيل عن مجالس محلية لإدارة شؤون المنطقة لكان ذلك أكثر منطقية، أما قضاء وسجن، فالأمر مبكر. بكل الأحوال، وصول مثل هذا الخبر يحمل عدة مستويات، أولها أنه يكشف هول العزلة التي أعيش فيها، بحكم موقع البيت بالدرجة الأولى،

ثانياً الفقر المتزايد المترافق مع غياب الدولة سيفرض المزيد من حالات السرقة، بسبب حالة الانفلات الأمني بشكلٍ عام، وسيزيد من الحاجة إلى آلية ضبط تعوّض عن غياب الدولة، ثالثاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأخبار حول النقص المؤثر في ذخيرة الجيش الحر، وعدم قدرته على السيطرة على كل مناطق المدينة، فذلك سيزيد من الأزمة والاعتداء على حقوق المواطنين، رابعاً، لا بدَّ أن النظام يراهن على سقوط المدينة دون قتال، بسبب الفقر والجوع والإنهاك، إنه يكتفي بقصفنا من بعيد دون خوض معارك شديدة على الأرض، إنه توازن قلق نمرّ به، عض طويل على الأصابع التي أوشكت على أن تُقطع.

ـ 78 ـ

لا أقدر على نسيان صدمتي حين سمعت بفوز سبيستيان بينيرا كرئيس جمهورية في تشيلي الذي قُدّم وقتذاك على أنه رجل أعمال كان من أعوان الديكتاتور (الأزلي) بينوشيه (وهو من ألهم غابرييل غارسيا ماركيز رواية خريف البطريرك)، لم أقدر وقتئذ على استيعاب الصدمة، أن يصل أحد أتباع الديكتاتور إلى السلطة عن طريق صندوق الاقتراع، أي أن قسماً كبيراً من الشعب الذي عانى من إحدى أشد الديكتاتوريات في العالم انتخب أحد أتباع ذلك الديكتاتور، خلفاً لرئيسة يسارية هي ميشال باشيلي. كان سلفادور الليندي المثال الأنصع على وصول اليسار (الراديكالي) عبر صندوق الاقتراع (ترشح أول مرة في 1952 ووصل إلى السلطة في 1970)، على رفض ديكتاتورية البروليتاريا خارج المنظومة الأوروبية والكومنترن على حدٍّ سواء ورفض عسكرة المجتمع الذي قاد إلى إمكان وصول الوحش بينوشيه إلى السلطة (بدعم أمريكي مشين كالمعتاد)، كان إعدام الليندي إكمالاً لأسطورته، لراديكاليته (بالمعنى الجذري للكلمة). لا أدعي أبداً اطلاعي

العميق على الوضع السياسي في تشيلي، ومع ذلك يظل السؤال مشروعاً، هل نسي الناس أهوال الديكتاتورية؟ وقتئذ أصبت بإحباط شديد، أخذت الموضوع من زاوية وهن الشعوب، نظرت إلى النسيان باعتباره خيانة للإرث الديمقراطي الذي دُفع ثمنه غالياً، والذي كنت أعتبره الضامن المجتمعي للوقوف في وجه أي ديكتاتورية، كنت أنظر إلى تشيلي باعتبارها نقيضاً لمجتمعاتنا التي لم تدفع وقتذاك أي ثمن كبير من أجل الديمقراطية. الآن وبعد قيام الانتفاضة لدينا، أفكر في ذلك النسيان بطريقة أخرى، هل هو نسيان أصلاً أم تجاوز لحقبة ومخلفاتها؟ هل تجاوز المجتمع هناك أزمة المصالحة الوطنية ليعود الجميع إلى العملية السياسية بشكلٍ صحّي لا يلغي أحداً؟ بصدق لا أعرف، ولم أحصل على مراجعَ موثوقة حول ذلك، من الواضح أني أعالج الأزمة هناك من منظور أزمة البلد هنا، وأتساءل هل لنا لاحقاً أن نتجاوز الديكتاتورية ومفرزاتها والحرب الأهلية المسؤولة عنها؟ هل سنصل إلى مرحلة نتصالح فيها جميعاً؟ مرحلة تسمح بعملية سياسية تكون فيها الديمقراطية غاية في ذاتها؟

ـ 79 ـ

بعد فترة من ضعف المعارك قرب البيت، مع أخبار متفرقة عن نقص الذخيرة لدى مقاتلي الجيش الحر، وأثناء معركة ضخمة نسبياً فجر اليوم، استخدمت فيها الآربيجيات غالباً، على عكس العادة، كان الفرح أكثر حضوراً من الخوف.

ـ 80 ـ

هناك فكرة لا تغادر ذهني قرأتها أول مرة في قسم من كتاب لبرتران

دوجوفنيل حول الثورات (عنوان الكتاب: في السلطة، التاريخ الطبيعي لنموها) يرى فيه أن الثورة تقوم بسبب ضعف الملوك لا بسبب طغيانهم، متسائلاً هل تجرأ الناس على أن يثوروا ضد لويس الرابع عشر (المروّع والذي خاض حروباً مع معظم دول أوروبا موسعاً حدود فرنسا)؟ لا، ولكنهم ثاروا ضد «طيب القلب» لويس السادس عشر (الثورة الفرنسية 1789، التي أدت إلى إعدامه وزوجته ماري أنطوانيت في 1793). فـ «الثورة لا تقوم من أجل الإنسان بل من أجل السلطة»، ويرى أن «الشعوب نصبت المشنقة ليس كعقاب معنوي للاستبداد، وإنما كجزاء بيولوجي للعجز».إنه اقتباس من براغماتية مكيافيلي الذي يرى أن «الثورة خطر يتعرض له الملوك عندما يكونون ضعافاً وطغاة في الوقت نفسه» أي «بوجود التركيب القاتل بين العيبين» (قاموس الفكر السياسي)، ثم يتابع دوجوفنيل ليصل إلى أن الثورات تستبدل طاغيةً بآخر، إنها تقيم طغياناً أكمل كلما كانت التصفية (لمن سبقها) أكثر اندفاعاً. إنها سلسلة عبثية تقع فيها الثورات، مقارباً رأي هوبز في أن «الفوضى وحمام الدم اللذين طبعا الثورة بطابعهما أسوأ بكثير من أقسى أنواع الطغيان» (قاموس الفكر السياسي). لم أرغب في متابعة كتاب دوجوفنيل لأنه مستفز، هل تأتي الانتفاضة السورية كعقاب على ترهل نظام بشار الأسد، ولا أقول ضعفه، لأن سيطرة السلطة المركزية لم تضعف، (وهذا ما يترافق مع اتباع درب الإصلاح عادة، وهو ما لم يحصل في سورية)؟ هل كان «القفاز القماشي» الذي ارتدته القبضة الحديدية للنظام هو السبب؟ هل كان السجن لخمس سنوات بدل الغياب الأبدي في المعتقل هو السبب؟ هل تراجُع مستوى القمع بالترافق مع تسارُع عجلة النهب بحكم العطالة الهائلة للنظام، بحكم تغوّله واتجاهه نحو النموذج الليبرالي وإسقاط ورقة التوت عن الاشتراكية السبب الأدق؟ بغض النظر عن تلك العوامل وعن وضع بشار الأسد والتغيّرات الإقليمية، والمد الثوري العربي (ومحاولة تفنيد رأي دوجوفنيل الذي سيقود إلى بحث

مطوّل لا يتوافق مع غايتي من الكتابة هنا)، يظل التساؤل موجوداً ولو كان معكوساً نحو الخلف: هل كان الشعب السوري قادراً على الانتفاض في وجه حافظ الأسد بكل هول ديكتاتوريته، أو لو وجد رفعت الأسد داعماً لأخيه (مع الأخذ بعين الاعتبار أحداث الثمانينيات وتأثيرها على الوضع الراهن)؟ قد تكون الإجابة نعم (مصير حسني مبارك، وزين العابدين بن علي، ومعمر القذافي وعلي عبدالله صالح)، إن كان الجواب نعم، فالسؤال التالي هو: ما التكلفة؟ مئات ألوف السوريين بالحد الأدنى (ولست متأكداً من أن نظام بشار الأسد لن يصل إلى هذا الرقم في ضوء التراخي الدولي، ولنا أن نتذكر أن المروع بوتين «حامي بشار الأسد» قتل ربع مليون إنسان من أصل مليونين يعيشون في الشيشان).

إن كانت الثورة تهدف إلى تغيير النظام ومؤسساته السياسية بأساليب تحظرها هذه المؤسسات (باعتبارها قمعية)، فهذا يعني، في ظل الصراع، أن المجتمع يعيش في فترة معينة دون أن يكون محكوماً بتلك المؤسسات السياسية. ومع طول الصراع يبتعد الناس عن المركز المعتدل نحو الأطراف الراديكالية (بالمعنى المتطرف للكلمة)، وهذا يزيد من العنف (المفروض أصلاً من قبل النظام الحاكم والذي أثبت أنه غير مستعد لتقديم أي تنازل أمام الحراك الشعبي). هنا تتكفئ تيارات معتدلة أمام تشدد ديني، وتنفتح فجوات في المجتمع تدخل منها القاعدة مثلاً. الخطر لا يكمن في مرحلة النضال ضد الديكتاتورية فقط، بل يتزايد أثره في مرحلة ما بعد سقوطها. فإذا قبلنا تقسيم الحراك الثوري إلى متطرفين (يتبنون العنف) ومعتدلين (يُفرض عليهم درب العنف وقد يتبنونه أو يتحفظون عليه)، فالخطر يكمن في اضطراب المجتمع أثناء «حل المسائل الموروثة عن النظام القديم»، وذلك عندما «يترك المعتدلون مكانهم للراديكاليين»، هنا تغدو الحرب الأهلية واقعاً محتوماً، والأخطر أنه ينفي السبب الأساسي الذي تبنته الانتفاضة: «الحرية». إن كانت الثورة تعني قيام نظام جديد مركب من

معقد ثلاثي (انهيار الدولة، الصراع على السلطة، قيام مؤسسات جديدة)، فنحن نفتقد العنصرَ الثالث، وهو رؤيةٌ عن ماهية المؤسسات الجديدة، مشروعٌ ينقل الانتفاضة إلى ثورة. ما زلنا نتجمع عند عنصر الفرز السياسي الأول، وهو العداء للديكتاتورية، ونهرب من العنصرين الباقيين وهما: الموقف من العلمانية مترافقة مع الديمقراطية باعتبارها بنية مؤسسية، والموقف من التدخل الخارجي. لم يكن للمثقفين (بشكلٍ عام) دورٌ في بدء الحراك أو في التأثير عليه، بل أقول العكس: كان لهم دور سلبي، كانوا يسيرون خلف الحراك لا أمامه، يعيدون عباراته دون نقده، مكتفين فعلياً بدورهم كمثقفين مناصرين للثورة دون أن يقوموا بدورهم النقدي، ومع ذلك فدورهم بعد سقوط النظام أهم. قد تبدو الفكرة ضعيفة، لأن ضعفهم في الحراك لا يمنحهم ثقلاً فيما بعده، ولكني أرى العكس (أو آمل فيه)، ففي وقت المذابح والعنف الطاغي لا يقدر أحد على الإصغاء، وسيكون الأمر صعباً في المرحلة اللاحقة، ولكنه أكثر إمكانية إن لم يُسحق المجتمع تحت وطأة حرب أهلية طويلة. فرصة الوصول إلى الناس تغدو أكبر بعد انتهاء القتال، وعلينا أن ندرك أن المقاتلين لا يصلحون عادةً للسلطة، للعملية السياسية، وفي الحركات الثورية في العالم هناك فصيل أو شق عسكري مقاتل، وشق سياسي يدخل في العملية السياسية، ويظل المتظاهرون السلميون أهم من مقاتلي الجيش الحر، لأنهم جوهر الانتفاضة، وهم الضمان الوحيد في ألا تأتي الثورة بسلطة أشد استبداداً، إنهم الضمان في قدرة المجتمع على الوقوف في وجه الديكتاتورية إن أطلت بوجهٍ جديد.

ـ 81 ـ

أتذكر غيظي الشديد عندما شاهدت بعض الأعمال الفنية في متحف الفن الحديث في لندن، منها على سبيل المثال عدد من «اللوحات» الهائلة

الحجم مدهونة بلون واحد، أو بأعمدة متجاورة من الأحمر والأخضر (بما يشبه ورق الجدران البشع)، أو لوحة مدهونة بالأصفر فيها خط برتقالي، الأمر ليس في أني أنفي صفة الفن عنها، ولكن ذائقتي لا تتقبلها، لأنها ببساطة تبيع فكرة، وأنا أستاء من ذلك الاستسهال الذي يحول العمل الفني إلى فكرة فقط، مشفوعاً بغرور مزعج رسولي، مثل انزعاجي من بعض لوحات بيكاسو رغم إعجابي بمراحل من عمله، ما أقدمه هو ذائقتي فقط التي ترى في الحفرة القابعة في الجدار الخارجي لغرفتي الناجمة عن رصاصة حائرة، عملاً فنياً أعمق وأقل تكلّفاً وتكلفةً وغروراً (حتى أن اسم «الفنان» غائب ليتركه لي بتواضع)، كما أنه أوضح في فكرته وقد يكون أعمق..

ـ 82 ـ

كلما فكرت في المنبهات يزداد إعجابي بها، آخر فضائلها بالنسبة لي أنها تمنح المرء تفسيراً طبيعياً لنزقه، تفسيراً يصلح في كل الأوقات، وسيلة مناسبة ليكذب فيها المرء على نفسه متذرعاً بمعلومات موضوعية، (كثيراً ما يأخذ الإنسان دور الخبيث والضحية في التعامل مع نفسه). الأهمية لا تكمن في التبرير الطبيعي للنزق والتوتر، فهذا ثانوي، بل في الشفاء السهل منهما إذا ما أزلنا السبب وهو المنبهات. إنه أمل زائف يسربه الإنسان في روحه بعفوية، بعد هذه الفكرة قررت أن أشرب كأسي الصباحي من القهوة، لأن أمامي يوماً طويلاً من النزق، ثم خطرت فكرة مزعجة: هل سيأتي يوم نضيف فيه القذائف إلى قائمة المنبهات؟!

ـ 83 ـ

كثيراً ما يتخذ الحوار شكل الصراع، صراع ليس من الضروري أن

يكون بين المتحاورِين، صراع يتفاوت في حدته وقد يكون بين المرء ونفسه، بين تركيزه فيما يقوله الآخر، وبين تركيزه في الدفاع عن وجهة نظره، في الدفاع عن وجوده في الفكرة التي يحملها أكثر من الفكرة نفسها. منذ عشر سنوات كنت أقول إن لم تؤمن بفكرتك لن يؤمن بها أحد، وكأني أقول إن لم تؤمن بنفسك لن يؤمن بك أحد. أنا لا أجرؤ على ذلك الآن، والإيمان يتضمن الدفاع المستميت عنها، وهذا يعني ضمناً الوقوع في أسرها، أتذكر لحظات أثناء الدفاع عن أو البحث في فكرة أتبناها أكتشف فجأة خللها أو نقصانها قبل أن أصل إليه في حديثي، لأن اللغة في الذهن أسرع بمراحل من اللغة المنطوقة، عندئذ يقع المرء في فجوة بين فكرتين أو بين وجودين، ويغيب ذلك الحماس الواثق، ذلك الإيمان من الصوت، وينتقل الكلام إلى عموميات تحتمل تأويلات عدة تتيح الهروب من المأزق أو المراوغة فيه. ومن ناحية أخرى، إنها وسيلة في الصراع مع الخصم المتحاور، إذ إنك تترك الباب مفتوحاً لإعادة تشكيل الفكرة أثناء حديثه، وقد تمنح نفسك ميزة إظهاره بمظهر الجاهل العاجز عن الفهم. لا يحس الآخر بذلك غالباً إلا إن كان مقرباً أو متمكناً في موضوع الحوار، والسبب الأساسي أنه مثلك يركز في فكرته أولاً وليس في فكرتك أو في ما تقول، وقد يتحيّن الفرصة ليقاطعك ليدعم رأيه. أفترض أن هذا ما لفت كتّاب العبث، الحوارات المهدورة بغزارة في حياتنا، الغش والتلاعب المستمر، وفي الأزمات تتفاقم المشكلة السابقة، يغدو الحوار إثباتاً للمواقف وإدانة للخصم، سحقاً له ولما يمثّله تحت حوافر الكلمات الثورية أو الوطنية. بالنسبة لي، غالبية البرامج الحوارية عروض عبث، وللأسف ننجرّ إليها في بعض الأوقات. ما سبق قد يفسر لماذا يكون الإنسان أكثر مرونة أحياناً عندما يحاور نفسه مقارنة بحواره مع الآخر، قلة قليلة من معارفي لا يقعون في فخ الذات أثناء الحوار، أهمهم زوجتي مايا، وصديقي مهند الجندي، إنهما ولو بشكلين مختلفين يجيدان الإصغاء أكثر، وحوارهما ليس أقوى بالضرورة، ولكنه أصدق.

ـ 84 ـ

أدهشني أحد أقربائي (وهو شاب صغير بالسن) عندما زارنا البارحة، بحديثه عن اجتماعه مع عدد من أصدقائه بشكلٍ يومي على أحد الأرصفة بعد شطفه وتجهيزه بطاولات وكراسٍ وشاي، ليلعبوا على الكومبيوتر أو بالورق ساعات طويلة تشمل الليل كله حتى الفجر، ولفت نظري أنه لم يمنح فعله أي شجاعة كما يفعل المراهقون عادة، بل فسره بالضجر، والسجن المرادف للموت. وعندما سألته عن القناصة قال إنه لم يرَ أحداً منهم، فضحكت وقلت له ليس مهماً ألا يراهم، المهم ألا يروه، وأجاب بملاحظة ذكية: القناص يطلق النار عندما يكون خائفاً، ومنظري لا يخيف أحداً. قد يصح التفسير في بعض الحالات، وطبعاً هناك عشرات القصص التي تنافي ذلك، عشرات القصص عن الموت المجاني الذي يطول الأطفال أحياناً (وللأسف رأيت بنفسي بعضها في المشفى). الفكرة المدهشة هي في الرغبة في الحياة بالدرجة الأولى، في التجمع على رصيف من أجل اللعب، بالتأكيد هناك خطورة عالية ورعونة غير مفسرة ولكنها مغرية، هل كانت بيروت على هذا القدر من الرعونة في فترة الحرب الأهلية؟ سمعنا عن نشاط المسرح والفرق الموسيقية والشعر في عز الأزمة، لم نمتلك قبل الانتفاضة إرثاً ثقافياً في المجتمع ليتطور تحت خيمة هذه الرعونة الجميلة، لا أستطيع تخيُّل الموقف، الموت من أجل لعبة على الرصيف، بساطة غير مفسرة، علقت زوجتي مازحة: لو شاهدتكم كاميرات التلفزيون الرسمي لكنتم خير دليل على شفافية إعلام السلطة: «سورية بخير»!

ـ 85 ـ

قال لي قريبي إن والده (ابن عمتي) كان قد اشترى خروفين منذ فترة، ووضعهما في الحديقة الكبيرة ليأكلا العشب (الضار)، فنفق أحدهما،

وأضرب الآخر عن مهمته في أكل العشب، حتى أنه يفضل شجرة الليمون دون العشب، وعندما سألته: ماذا تفعلون به في هذا الحصار؟ أجاب بحماس إن أهميته ازدادت، أولاً هو وسيلة اللعب الأجمل لحفيدتهم الوحيدة (توتة) وعمرها عام واحد، والأهم أنه ضمان ممتاز لتوافر اللحم في حال انقطاع الكهرباء..

ـ 86 ـ

أخبرني قريبي بأغرب حدث سمعته منذ بدء الأحداث، وهو يسكن بالقرب من بيتنا بجانب أمن الدولة، فقد سمعوا شخصاً أمام البيت يستنجد بحرقة، خرجوا فوجدوا جريحاً، حاولوا إسعافه، ففوجئوا بسيل من إطلاق النار من فرع أمن الدولة، فاضطروا إلى التراجع والاحتماء داخل المنزل الذي تعرض إلى المزيد من الطلقات. بعد ذلك اعتقل عناصر الأمن الجريح الذي أصابوه ظناً منهم أنه من عناصر الجيش الحر، ليكتشفوا لاحقاً أنه عنصر أمن دولة، أي زميل، وبعد غربلة البيت بالرصاص الذي دخل من النوافذ، عادوا ليعتذروا من أهل قريبي الذين حاولوا إسعاف الجريح دون أن يعرفوا من هو، ظانين أنه من الجيش الحر..

ـ 87 ـ

ذكرت في موضع سابق أني كنت أكثر أنانية وخوفاً من أن أكتب رواية، هذا غير دقيق تماماً، فقد سبق لي أن حاولت كتابة رواية، كنت وقتئذ في الثالثة عشرة من عمري، وفكرة الرواية تبدأ ببدء القيامة، حشود لا نهائية تسير، لا أحد يعرف بدقة إلى أين، مؤمنون ولصوص وعاهرات وأرامل، مدرسون وحشاشون، خليط من كل صنوف البشر يسيرون، في متاهة

أبدية، وحوارات واسعة أشبه بمونولوجات أو تمارين دفاع أمام ربٍّ متخيَّل. كان استجواب كل إنسان يستغرق وقتاً مساوياً لعمره، وبالتالي سيكون الانتظار مقارباً للأبد، كتبت وقتئذ نحو ستين صفحة، ثم مللت كما يفعل المراهقون، حاولت وقتئذ الكتابة بروح مرحة أو كوميدية، مع رؤية عبثية، مع تجرؤ الجاهل على سذاجة تصوراتي عن الكتابة في ذلك الوقت. للأسف فقدت العمل مع مجموعة من النصوص واللوحات العائدة لتلك المرحلة.

ـ 88 ـ

أحياناً أفكر في طبقات الموتى، في الفروق اللغوية لتسمياتهم، فهناك الميت والقتيل أو المقتول، وهاتان كلمتان تقللان من أهمية الميت، وهناك المتوفى، وهي كلمة دينية المنشأ، وهناك الشهيد والشهيد البطل، للتفخيم والمدح، وهناك الراحل والفقيد، للتفخيم إعلامياً، وهناك المغدور والضحية للرثاء، الكلمات السابقة تصف الأرواح لا الجثث، إنها إسقاطات الأرواح على الأموات، إنها تقسيمات الأحياء للأموات لحفظ أثرهم في الحياة، كلمات تقال في الحياة فقط، لا أعرف إن كان لها مقابل أو ما يشبهها في عالم الأموات.

ـ 89 ـ

كان الحديث عن الثورة أمراً جميلاً ورومانسياً، حلماً مفتقداً، أو حنيناً إلى زمن قديم، إلى إيمانٍ جماعي بالخير والدفاع عنه بحماس وافتخار وشجن موروث. اليوم أفكر بهول الألم المرافق، بالخوف والمرض، بفقدان الأهل والتشرد دون طعام أو مأوى، بحقد يتراكم بين الناس. أنا لا أذم الثورة أبداً، ولكني أرى الآلام التي تأتي معها، وأتمنى ألا تُضطر الشعوب لأن تثور.

ـ 90 ـ

كانت الأم مشغولةً، تفكر في الثياب التي ستُلبسها لأبنائها، في الأحذية المناسبة، العطر، وتسريحة الشعر، تنظر إليهم ممددين ليجفوا من غرقهم الطويل، تفكر بصمت منتظرةً أن يفيقوا ليتثاءبوا موتهم، سيروون لها أحلامهم الطويلة، تفكر جامدة وهي تتمعن في المياه الراكدة.

ـ 91 ـ

قررتُ فتح عيادة في منطقة القصور، في مركز سيحوي عيادة نسائية وعينية وأطفال وسنية مع مركز بصريات، إنها محاولة لتقديم شيء لهذا البلد في هذه الأزمة، وستكون الأجور شبه مجانية، كلنا نخشى أن يعتبرها الأمن مشفى ميدانياً لأن هذا سيكلفنا الكثير، ولكن أن يضمن المرء عدم تأنيب الضمير أمر يستحق المحاولة.

ـ 92 ـ

من الأشياء الغريبة والطبيعية في وقت واحد والتي لا يقدر المرء على التآلف معها هو تعود الناس على الحصار، يتصرفون وكأن الطلقات مجرد ذباب قد يمر في الشارع، تراهم يتجمعون في منطقة القصور، على جزر الشارع (الخط الفاصل بين شارع الذهاب والإياب والمزروع بعشب جفَّ ومات وبقيت النخلات صامدة)، وعندما تأتي سيرة القصف تسمع الأهوال والمبالغات. أنا متأكد أن القذائف لا تطير في الهواء إلى الأبد، ولا بدَّ أن تنزل على الأرض (بسبب الجاذبية غير الجنسية)، ولكن التناقض يكمن في الوصف المروع للأحداث بشكل تقرير يومي، واللامبالاة التي تسيطر على المتكلم وكأنه منيع عن الموت.

حصلت على عدد من المعلومات الموثقة حول هذا الحصار صدمتني بعمق، واكتشفت حجم الكارثة التي علقنا بها. بالنسبة لي النظام مجرم وجرائمه ممهورة بالقذائف التي تسقط يومياً على الناس، عدد الشهداء في المدينة منذ بدء الحصار بحدود 700 شخص منهم ما بين 65 إلى 75 شخصاً من الجيش الحر، أصلاً كلمة الجيش الحر كلمة مطاطة وتشمل الكثير من الفئات المتناقضة والمتصارعة أحياناً، هناك خمسة ألوية في المدينة بتعداد يقرب 3000 مقاتل نظرياً، وفعلياً عدد المقاتلين لا يتجاوز 600، وهناك خلاف كبير بين مقاتلي الريف والمدينة، إذ إن غالبية مقاتلي الريف، وهم يشكلون التعداد الكبير، يرفضون النزول من أجل القتال في المدينة. الوضع المحبط يتمثل في هذا التوازن المريض بين الجيش الحر وبين جيش النظام وأجهزة الأمن، ذلك أن النظام يكتفي بقصف المدينة عن بعد، والهيئة المسؤولة عن الجيش الحر تسرق غالبية المساعدات، ولا تريد تغيير الوضع كي لا تتوقف السرقة، تشكلت هذه الهيئة بناءً على طلب تركي وباتت تنسق مع السعودية وتركيا، وتتحكم بالتمويل وتوزيع السلاح. هناك كتائب لا تملك ذخيرة، وأخرى تملك كمية قليلة جداً تقاتل بها بشكل دفاعي بحت، وهناك كتائب تملك سلاحاً كثيراً نوعياً ولا تقاتل. كل لواء يتألف من خمسة كتائب تقريباً، وكل كتيبة من عدة سرايا، لا تنسق فيما بينها على الأرض. السلفيون يحظون بتمويل جبار يصل إلى عشرة أضعاف ما يحصل عليه سواهم، واللافت أنهم لا يشكلون أكثرية في الجيش الحر، فهناك كتائب تقضي وقتها في «المشروب والحشيش»، ومن سرب لي هذه المعلومات أكد لي، أنه لو تم التصريح بها على العلن فإن اللصوص الموجودين في الهيئة قد يقتلونه. المحكمة المشكّلة في المدينة من قبل الجيش الحر يشرف عليها قادة غير مختصين بالقانون، وللأسف فيها فسادُها، وبإمكانك أن ترشوَ القاضي بخمسين ألفاً لتحصل على الحكم

الذي تريده، ويبدو أن الحراك المسلح بدأ ينتج أزماته، وما بدأ بنزاهة وشجاعة وتضحية يتلوث بالانتهازية والمافيوية. وكما قال لي الشاب: «لم نقاتل ضد أجهزة الأمن لننشئ أجهزة أخرى تسرقنا وتقمعنا، ولم نقاتل ضد ديكتاتور لنأتي بآخر منا وعلينا!»، وهناك عدد من الناس بدأ ينسحب من الجيش الحر، لا بدَّ من التأكيد أن هناك بعض التناقض في المروي لي، في علاقة الريف بالمدينة تحديداً، ومنطقة موحسن بالتحديد، فهي شهيرة بأنها كانت ما يسمى بموسكو الصغرى قديماً، لانتشار التيار الشيوعي «الرسمي الانتهازي» فيها كما أنها تملك عدداً كبيراً نسبياً من الضباط في الجيش برتب غير عالية.

ما سبق يحزنني فعلاً، أنا واثق من عفوية الحراك الثوري في بداياته، ومن البديهي أن تحاول دول العالم التدخل في الوضع السوري، ولكني لم أتوقع أن الفساد سيستشري إلى هذا الحد، ويبدو أن أمراض النظام تتسرب إلى الانتفاضة، وهذا منطقي، إذ إنها لم تتشكل في سياق تطور مجتمع ونضج قيم الحرية والديمقراطية. لست متفائلاً بما سيجري، وأعتقد أن دور المثقف يأتي في نقد الحراك من باب الدفاع عنه. لم يكن التسلح خياراً، كان ضرورة للبقاء على قيد الحياة في وجه دموية النظام، والتسلح سينتج طبقة خطيرة على الانتفاضة ذاتها، ويظل السؤال الأهم هل من الممكن إنتاج هيئة مدنية من الشخصيات المعروفة في المدينة يكون الجيش الحر تابعاً لها؟ هل لنا أن نحافظ على مدنيّة الحراك، وبتُّ معتقداً أن المتظاهرين السلميين هم الأكثر أهمية في هذه الانتفاضة، وأرجو أن من يقدر أن يثور على نظام حديدي كنظام الأسد سيقدر أن يثور على أي ديكتاتور يليه، ولكني أخشى أن وعي الحرية والديمقراطية لم ينجز ولن ينجز في المدى القريب، كما أن المرحلة القادمة ستكون مرحلة فوضى لن يتشكل فيها نظام واضح. أفكر بحزن فيما كتبته منذ زمن، في التعميمات التي تجعل من الجيش الحر منقذاً، كنت أعلم بالتأكيد أن هناك تمايزات

فيه، وما زلت أراهن عليه، هناك من يموت وهو يوزع الخبز المجاني على الناس، هناك صيدلية مجانية في الحميدية تعطي الدواء لأي محتاج مجاناً، وهناك شباب من بينهم طلاب جامعيون من كليات الهندسة والطب البشري يقاتلون ويصنعون العبوات، وهؤلاء هم رهان هذا البلد، أفكر في الضباط المنشقين، هل أذى بعضهم للانتفاضة أشد بعد انشقاقه؟ من جانب ثانٍ، الجيش النظامي يزداد فساداً وبخاصة على الحواجز خارج المدينة، إذ إن الرشوة تسمح بإدخال أي شيء إلى المدينة، أفكر في العمل المسرحي أو الروائي المعقّد الذي يمكن أن يكتب عن هذه المرحلة، إنها فوضى مروعة لا يمكن إطلاق تعميمات كبيرة. أحس بنوع من الامتنان للنظام لأن بشاعته تمنح أرضاً يقف عليها المرء وسط هذا الدوار، حجر ارتكاز لينطلق منه في محاولة فهم الأمور، لعلها الحقيقة الأكثر حضوراً وتجذراً منذ عقود.

ـ 94 ـ

من الأشياء المحرجة والمغيظة لي في آن واحد والتي تتكرر منذ أن افتتحت عيادتي الجديدة أثناء الحصار، أن يأتي شخص مصاب بشظية دخلت إلى عينه مسببة انفقاء عين، وقام أحد الزملاء بجراحة إسعافية للحفاظ على العين التي فقدت البصر حكماً، وينظر المريض إلى الطبيب الذي أسعفه على أنه جاهل لأن العين عمياء، هذا النوع من الأمل الذي يتحول إلى جحود ضمني مريع، أفكر في زميلي الذي غامر بحياته لينقذ شكل عين لا لينقذ البصر، ثم يقابل بهذا الاستخفاف، لأن المريض يلح بالسؤال عن جودة الجراحة، وعما إذا كان البصر سيُنقذ فيما لو أجراها في دمشق مثلاً، من الصعب التعامل مع هذه الحالات، فلا المرضى ملائكة ولا الأطباء كذلك، ولا أعرف إن كان عليّ أن أحس بالذنب لسعادتي في أني لم أكن الجراح الذي أسعف ذلك المريض.

ـ 95 ـ

الحصار يفرض ظروفاً غريبة إلى حد التناقض، ثلاثة شوارع متوازية ويفصل بين كل اثنين منها عشرون متراً، الشارع الأول خاوٍ، والثاني فيه عدد من المحلات وعدد من الناس، ومساحات واسعة من الزبالة التي تُحرق، وحولها أطفال يستمتعون بالحرائق ويشاركون في توسيعها، والشارع الثالث (واسمه حارة الأرامل دون أن أعرف سبب هذه التسمية الدرامية) ينتمي إلى عالمٍ آخرَ، زحامٌ هائلٌ، بسطات من البضائع وأطفال على الدراجات بين حشود الناس، السكان يجلسون على المصطبات أمام المنازل، وبركُ الوحل تتوزع (إنه طبعٌ أزلي في المدينة وهو رش المياه أمام المنازل، مع العلم أنها مقطوعة في مناطق أخرى)، ستون متراً تقدم ثلاثة عوالم، هذه المسافة غير مهمة في منطق القذائف (إن أتت)، مع العلم أن المنطقة محمية نسبياً منها بسبب قربها من مقر فرع أمن الدولة. رهاب من القناصة في الشارع الأول، وتجوّل عبثي في الشارع الثالث بقصد التسلية.

ـ 96 ـ

بدأ نهاري اليوم بشكل رديء، فقد كنت متعباً ونعساً إلى حد قررت ألا أذهب إلى العيادة، ففوجئت بشخصٍ يأتي إلى البيت ويطلبني، لأن أخاه مصاب إثر لغم على شكل مخزن سلاح مما أدى إلى بتر يده وإصابة عينيه، عرفت أن هذا الشخص كان معي أيام الدراسة في الإعدادية غالباً، ولم أتذكر اسمه كعادتي (لا أعرف سبب الثقوب المروعة في ذاكرتي، إذ يبدو الأمر وكأني أحرص دون وعيٍ مني على مسح كل المراحل المتعلقة بوجودي في ديرالزور). وصلنا إلى المشفى، ففوجئت بالظروف الصعبة التي يعيش فيها، دخلنا غرفة العمليات التي تحوي مريضاً يجري عملية تحت التخدير العام، ووضعنا المريض الجديد على سرير ثان، غرفة لا

تصلح لأن تكون غرفة عمليات لسرير واحد باتت تحوي سريرين، وكل مريض يحتاج إلى جرّاحَيْن على الأقل (مريضي يحتاج إلى جرّاح عينية وآخر عظمية) وكل جراح له مساعد، ومع طبيب التخدير وفني التخدير والمتطفلين على الغرفة، أصبح الأمر أشبه بالدبكة، إذ إن كل شخص محاصر بكتفٍ على يمينه وآخر على يساره، وبالتأكيد شروط العقامة بائسة إلى حد يثير البكاء، وللأسف فقد المريض عيناً لأنها ممزقة بالعديد من الشظايا، والعين الأخرى فيها نزف شديد ومهددة بالعمى أيضاً، أنهيت العملية مكتفياً بالخياطة الخارجية للحفاظ على شكل الأجفان، لأن إجراء استئصال عين غير ممكن، الكارثة أني علمت أن المريض فني مخبر، عليّ أن أعترف أني سعدت لأني لم أتعرف عليه، لأن ذلك سيفاقم حزني بكل تأكيد.

ـ 97 ـ

من الأمور المزعجة في الحراك الثوري نوع من المزاودات، إذ يزاود الناس على بعضهم بالثورية، بل هناك نوع من الذم للآخرين، إذ يسمع المرء نوعاً من التهكم والاحتجاج على الذين يعيشون في منطقة القصور (منطقة سكني ومكان عيادتي الجديدة)، على اعتبار أن نمط حياتهم لا يتوافق مع الثورة، فكيف لهم أن يتمشوا وأن يأكلوا الشاورما؟ ويتمنى البعض أن تصلهم بعض القذائف! إنها حالة من الثورية المريضة مع التركيز على الذات، إنهم يحتجون على فكرة المركز الذي افتتحناه، ويرون أنه من الضروري أن يكون مجانياً بالمطلق، لأن المركز يأخذ من وهج ثوريتهم، لم أكن أتخيَّل أن الانتفاضة ستخلق صراعات من هذا النوع بين أفراد الفريق الواحد، ولكنه الطبع الإنساني عند مزج الذاتي بالعام، عند شخصنة الوضع العام. من الأشياء المزعجة الاحتجاج على أحد أطباء

الجراحة العصبية الذي لم يغادر مشفى السعيد شهرين كاملين، لأنه ترك المشفى ليتزوج! كلما هاجمت الآخر، أكدت طُهرانيتك، هذه هي القاعدة، بالتأكيد تعرضت لانتقادات بسبب عدم وجودي في المشفى، رغم القناصة حول فرع أمن الدولة وخطورة مكاني، لكني حرصت على عدم الدخول في أي صدام، لأني أدرك أننا في صفٍّ واحد، وأدرك عقلية المدينة في النميمة والصراعات الصغيرة.

ـ 98 ـ

المدينة ليلاً أشبه بكابوس، اضطررت للخروج من المنزل إلى مشفى فيه طبيب عظمية صديق لي، وذلك لإسعاف مدى، إثر إصابة في المعصم. الشوارع تغرق في الظلام والسكون، شوارع كان المشي فيها أمراً صعباً بسبب الزحام، الشوارع نفسها التي شهدت مظاهرات حاشدة ضد النظام، الشوارع الآن محررة مع انعدام الوجود البريّ فيها للأمن أو الجيش النظامي، وفي المقابل يتركز فيها القصف المدفعي والطيران الذي بات يحمل براميل تحوي قرابة 250 كيلوغراماً من المتفجرات وتلقيها على الجبيلة والحميدية، لينفجر بعضها ويبقى قسم آخر كألغام. آثار الحياة في هذه الشوارع قليلة، حتى القطط هجرت المنطقة، مع بعض الاستثناءات لأناس يجلسون أمام البيوت في تحدٍّ تقليدي للموت. لدى عودتنا إلى المنزل أصيبت مايا بالرعب، لأنها وجدت بقعة حمراء تتجول على صدري ورأسي وأنا أحمل مدى، إنها ضوء الليزر الملحق بالقناصة، كان القناص يتسلّى وهو يتخيَّل أنه يطلق النار عليّ، أو لعله يرقب رد فعل زوجتي، إنها رسالة معناها أن حياتي تساوي رصاصة، أو أن القناص يستطيع أن يرديني في أي لحظة يشاء، لم أرتكس كثيراً في البداية، فكان اهتمامي مركزاً على إبعاد مدى، ولكني لسببٍ ما، ما أزال أحس بالبقعة الحمراء تسبح على صدري، والأسوأ على رأس ابنتي.

_99_

فكرة الألغام مرعبة، يومياً هناك إصابات بسبب الألغام، ولكن أكثرها شناعة حصل مع أحد الأشخاص (روى القصة الطبيب الذي عالجه إثر بتر ساقه بسبب اللغم): في يوم جمعة خرج فيه ليصلي في الجامع، فوجد صورة لبشار الأسد على باب بيته، فقام برميها والدوس عليها فانفجر اللغم فيها، لا أتخيَّل كيف لأحدهم أن يفخخ صورة لبشار الأسد، صورة لسيده، إنه تناقض مخيف يتجاوز المرض النفسي.

_100_

عليّ أن أعترف أني أحس بنوع من التحرر بعد الانتفاضة، إنه مزيج بين التحرر والإحساس بالفشل، فشل اليسار وفشل الماركسيين في التعاطي مع الانتفاضة والواقع الذي أفرزته، تخاذل أسماء يسارية كبرى من فنانين، تخاذل الأحزاب الشيوعية المعارضة، إساءة اليسار العالمي مثل فنزويلا وكوبا، والأحزاب الشيوعية العربية والعالمية كالحزب الشيوعي اللبناني أو الروسي. إنها مزحة قاسية أن يتفق الليبراليون وممثلو المافيا والشيوعيون الروس ضد الشعب السوري، أحس أني لست مضطراً إلى التعاطف مع هذا اليسار، لم أتحول إلى الليبرالية بالتأكيد، وعندي معضلة قديمة بخصوص تعريف اليسار وعلاقته مع الطبقات الكادحة، وترسخت قناعتي بضرورة تشكيل تحالف علماني ديمقراطي يشمل اليساريين والليبراليين كجبهة داخلية ضد التيارات الدينية وضد النيوليبراليين. المهم أني بدأت أفكر في أشياء لم أكن أعطيها حقها من الاهتمام، مثل التركيز على دموية ستالين وتهجيره شعب الشيشان كاملاً اثنتي عشرة سنة إلى سيبيريا، إعدامه لمئات الآلاف من الشيوعيين. بدأت أقبل إدراك قبح التجارب اليسارية، كنا سابقاً نركز على دور الدولة الاقتصادي والاجتماعي كذريعة لتبرير

القمع، الآن بدأنا ندرك أن الحرية أو الديمقراطية قيمة عليا وليست مجرد وسيلة كما تعرّفها الماركسية. باتت الحتمية التاريخية مزحة لزجة تخنق أصحابها، وترافق ذلك مع الدور المشين للولايات المتحدة الأمريكية، التي ازداد العداء لها في فترة الربيع العربي، ليبقى الخطر كامناً في قوة التيارات الإسلامية كبديل دائم لفشل الإيديولوجيا.

ـ 101 ـ

بدأ البلد يفرغ من الأطباء، حشود هائلة من الأطباء السوريين على أبواب وزارة الصحة في دمشق لتجهيز الأوراق المطلوبة للسفر إلى السعودية، وعدد كبير آخر سافر إلى مصر كمحطة أولى، للانتقال إلى مكانٍ آخر قد يكون الخليج. أحس بتوترٍ كبير عند طرح موضوع السفر، لست مرتبطاً بقوة مع هذه البلاد، ووطني هو أسرتي وحدود منزلي، هذا ما اقتنعت به خلال ثلاثين عاماً، وطني قابل للتنقل من بلدٍ إلى آخر، الوطن هو العالم الداخلي أولاً. ومع ذلك كلما فكرت في ترك البلد تحضر غصة غريبة، كنت أفترض أن السبب هو الانتقال إلى المجهول، ولكني الآن أعلم أن أحد الأسباب هو اعترافي الكامل بالهزيمة أو وصول الهزيمة إلى نهايتها.

ـ 102 ـ

حضر البارحة عدد من أفراد الجيش الحر إلى المركز الذي أنشأناه في القصور محتجين على أن أسعار المركز عالية، وتركز الاحتجاج لاحقاً على أسعار طبيبة النسائية وطبيب الأسنان (وهو أخوها). الأمر مزعج فعلاً، لأن الأساس في فتح المشروع هو مساعدة الناس ومحاولة تقديم خدمات في وقت الحصار، ولكني لا أعلم لماذا يتم إفساد كل شيء في هذا

البلد، فنحن نتعرض لهجوم من أطباء مشفى السعيد، وهم أطباء يعملون على إسعاف الجرحى مجاناً، أو بأجور تأتي من خارج سورية، إنهم يريدون أن يكون العمل في المركز مجاناً، وهذا يحمل خطورة كبيرة تجاه الأمن، وسيسبب ضغط عمل غير حقيقي لأن الجميع سيأتي ليُفحص، سواء أكان مريضاً أم لا. اتفقنا على أن الأجور رمزية، وعلى عدم أخذ المال من أي مريض فقير، أو من أي جريح، نسبة العمل المجاني تتجاوز النصف بالنسبة لي، والمضحك أن بعض مرضاي من المؤيدين، كم هو سخيف أن أعالجهم مجاناً، وبعض المرضى أثرياء بشكلٍ مفرط. هناك حرب تشن على المركز، حملة لتشويه السمعة، هذا طبع أزلي في المدينة، النميمة والذم العشوائي. علمت لاحقاً أن صراعاً مشابهاً يتم بين فريق عمل أطباء مشفى السعيد وفريق عمل أطباء مشفى الساعي قبل أن يغلق، والذي انتقل إلى المشفى الوطني الحكومي (الذي أغلق البارحة كلياً بسبب القذائف والصواريخ التي قصف بها). يبدو الأمر وكأنه خلاف على احتكار المشروعية الثورية أو احتكار المجد الثوري. صيغة أخرى من الصراع بين الكتائب المقاتلة تحت لواء الجيش الحر، وصيغة أخرى للصراع الذي سيعم سورية إثر سقوط النظام. بكل الأحوال قررت أن أستمر بالعمل مع كتابة الأسعار وإعلانها للجميع، وإرغام طبيبة النسائية على الالتزام بها، فهذا أضمن الخيارات.

ـ 103 ـ

إحدى السمات الغريبة في الحصار هو التناقض بين الهموم، ذلك أن التعرض المباشر للخطر يجعل من الهموم الأخرى ترفاً، مثل الأرق أو أن تعاني من زيادة الوزن، أو آلام الأسنان، هموم مهمة في الظروف الطبيعية تتحول إلى أفكار أقل ضراوة، ولا يعرف المرء كيف يتعامل معها، هل يطمئن نفسه بسعادة على أنه لا يتعرض للموت المباشر؟ أم يندب تسطيح حياته

وسحقها تحت وطأة العنف؟ ما يجري الآن سيغيّرنا، أتمنى أن يتاح لنا الوقت لسبر طبقات التغيير، رفاهية أن نكون مرضى هاربين من الموت، مرضى يفكرون بالتعافي، أتمنى أن يتوقف هذا الجري المحموم في الذهن، جريٌ متوحش ونحن مسمّرون على الكنبة.

ـ 104 ـ

الأفكار الغريبة ما قبل النوم، أو ما يسمى علمياً بأهلاس الرقاد، سمةٌ متأصلة مع الإنسان، أتذكر أني كنت أتخيّل عندما كنت صغيراً بحراً من الأفاعي أسفل السرير، كنت أتضايق لأن أرجل سريري من الخشب، وبالتالي يمكن أن تتسلق الأفاعي السرير بسهولة، لم أكن أخرج قدمي خارج السرير على الإطلاق، وكنت أخاف من النوم على فرشة على الأرض مباشرة. مع الزمن لم أفقد هذا الخوف، بل أخذ أشكالاً أخرى، أمسى نوعاً من القلق وليس خوفاً، وكانت مناوباتي الكثيرة في المشفى العام فرصة لتفاقم هذه الهواجس، والفكرة المركزية هي عدم الشعور بالأمان، فكرة أنك مكشوف على الآخر، أو على المجهول. في هذه الأيام عدت للنوم على الأرض مع أمي وأبي في غرفة الضيوف، بسبب أعطال في المكيفات، وأمست الأفاعي قذائف ورصاصاً وسيلاً من الأموات والآلام الطازجة، كوابيس تتزاحم للخروج، لاحتلال العالم الداخلي.. لاحتلالي.

ـ 105 ـ

عندما أفكر في النظرة العامة الوردية التي أتناول فيها الجيش الحر في البداية، وانتقاداتي الحادة اليوم، أحس بضبابية مقلقة، لا توجد معلومات موثّقة حول المجموعات المقاتلة وكيفية التنسيق بينها. بالتأكيد، المقاومة العسكرية حاجة، ولكن مجتمعاً غير ناضجٍ من الصعب أن ينتج مقاومة

ناضجة، هناك تعاطف شديد مع الجيش الحر، رفض ضمني للاتهامات الموجهة إليه، تشكيك في الروايات المنقولة من أطراف سياسية لا أتفق مع خطها السياسي، بل أراه مسيئاً وفيه ما يشبه الخيانة لتاريخها الشخصي أولاً، روايات غير موثقة وتحمل الكثير من التأويل، ولكني حصلت على بعض المعلومات من أشخاص موثوقين، والأهم أنهم من العاملين في الجيش الحر، هذا يغيّر من الأمور، والأهم يزرع قلقاً خطيراً من القادم، قلقاً من الممكن استنتاجه منطقياً، ولكن المعطيات على الأرض غالباً ما تكون أكثر تعقيداً من المتخيَّل.

ـ 106 ـ

استدعيت اليوم لإسعاف طفل عمره أقل من سنة تعرض لشظية قذيفة، لا بدَّ أن أعترف أن أول شعور راودني هو السعادة، سعادة أن الإصابة لم تكن لدى مدى أو زينة، شعرت بتأنيب ضمير شديد مباشرة، ولكن شعور السعادة لم يغب، هل يعقل أني وصلت إلى هذا المستوى من الخوف؟ أذكر أني كتبت فيما سبق عن الثيران التي تموت دون أن تدافع عن بعضها، يا ترى هل هذا هو شعور الحيوانات عندما تشاهد مفترساً ينقض على حيوان آخر من القطيع؟ بالتأكيد العمل الجماعي يحتاج إلى وعيٍ أعلى بالذات والجماعة، وليس من الضروري أن يعبّر دائماً عن التطور، فالنمل كائن جماعي، بكل الأحوال لا أعتقد أني كنت سأفكر في أي لحظة قبل هذه الأزمة بسعادة أن ابنتي سليمة، وأنا أمضي مسرعاً لعلاج طفلٍ آخر، وقد يكون جنوني الأخير أثناء إصابة مدى (وهو سلوك لم أتوقعه خاصة أني طبيب) قد مسني من الداخل. كنت أفكر بهذه الهواجس وأنا أخيط جرح الطفل الخارجي، للأسف لم يكن من الممكن إجراء جراحة له، لأن حالته العامة لا تسمح بذلك، أي أنه مهدد بالموت الذي أخذ أخاه وقد يأخذ أمه

في أي لحظة، لأنها تتعرض الآن لسيل من العمليات للمّ أشلائها، فيما يبقى أبوه لخياطة بعض الجروح غير العميقة الناجمة عن القذيفة التي ضربت منزلهم، ولكنه لم يقدر على إحضار الطفل، فأحضره طالب طب متطوعٍ في مشفى ميداني لا يعرف اسم الرضيع حتى. عندما عدت إلى المنزل احتفيت أكثر بطقس فرح مدى لعودتي، وهي تنتظر ما جلبته لها من السكاكر، كان فرحي مختلطاً بشعورٍ بالخزي، لأني أعلم أنه قد لا يوجد من يبكي هذا الطفل، من فكرة أنه سيوضع على سرير فقير ويُراقب باهتمامٍ من أشخاص عاجزين لا يعرفونه.

ـ 107 ـ

قتل البارحة نزار حوكان، الملقب بـ «أبو نعيم»، أحد أشهر مجاذيب ديرالزور، على يد النظام، رغم وجود العديدين ممن يؤكدون أنه غير مجنون على الإطلاق، وأنه تلبّس دور المجنون لأن المجتمع فرض عليه ذلك ولم يعد يتقبله إلا بهذه الصيغة. لعل الحكاية بدأت من أنفه الأسطوري، إنه أنف كبير بطريقة غير منطقية، يبرز ناشزاً من وجهه ومسيطراً على بقية التفاصيل، وهناك نكتة حول رفضه كل عروض تصغير أنفه من قبل أطباء الأذنية وأطباء التجميل، لأنه يرى أن كبرياءه يتكثف في أنفه بطريقة كوميدية، مثلما يتكثف في عصاه الخشبية الصغيرة المسنونة كخنجر يحملها أينما ذهب كخنجر مشهر تجاه العالم، لا ليخيفه بل ليدل على دناءته، كان ظهره أحدب رغم صغر سنه، وأسنانه تكشر فيما يشبه ابتسامة غائمة وهو يسير محدثاً نفسه بين الناس. أبو نعيم سبق له أن ترشح إلى انتخابات مجلس الشعب بمبادرة من إحدى الحارات التي تبنت حملته الانتخابية، كان الأمر وقتذاك صدمة للمدينة، وطريقة فريدة للاحتجاج على النظام الديكتاتوري، وذلك عبر ترشيح «مجنونين» محبوبين

ومسالمين للانتخابات، وهما أم قدور وأبو نعيم، وعند بدء فرز الأصوات حققا نجاحاً ساحقاً، مع تقدم أم قدور على الجميع يليها أبو نعيم وبفوارق شاسعة عن أكبر شيوخ عشيرة العقيدات (وهي أكبر عشائر المنطقة)، مما اضطر اللجنة الأمنية إلى الاجتماع وسحب ترشيح المجنونين، اللذين أمسى انتخابهما هاجساً عاماً، فمن المعروف أن المدينة تقاطع الانتخابات عادة في حين يقبل عليها الريف.

في تلك السنة هناك كثر شاركوا في الانتخابات لينتخبوا أبا نعيم وأم قدور فقط، كان هناك بيك أب مكشوف يحمل كنبة تجلس عليها أم قدور ويجول في المدينة، مشروعها الانتخابي يتلخص في بناء مصنع شحاطات «لستيق» (بلاستيك)، ويلعن أبا المحافظ ويلعن أبا أمين الفرع، في حين أن مشروع أبي نعيم يختلف، فهو مشروع يتحدث فيه كل قليل عن أمر ما، ويقول لي أبي إنه سأل أبا نعيم ذات مرة في أحد المشافي على اعتبار أنه كثير التردد إليها ويلمّ بكل فضائحها، حتى أن مدير المشفى الوطني يحرص على معرفة العلاقات الغرامية بين عناصر الكادر الطبي عن طريق أبو نعيم، وقتذاك سأل أبي أبا نعيم عن وضع النفط في برنامجه الانتخابي، فردَّ عليه بجدية مطلقة: «الله يسامحك يا دكتور، هاي الشغلة ما ينحجى بيها، تريد تروّحنا!»، هذا يؤكد أنه لم يكن مجنوناً، كان يعلم أن النفط خط أحمر في سورية، معظم المجانين في المدينة قُتلوا في هذه الأحداث، والسبب غالباً جهل القناصة جنونهم، أو خوفُهم الذي يطغى على معرفتهم، لم يتبق من المجانين المشاهير غير المسكين فاضل، الذي بات الجميع يتمنى سلامته، يبدو الأمر وكأننا نودع أحد آثار المدينة الحية، أحد رموزها الخاصة، الجميع يحس بنوعٍ من الحسرة، حسرة لا تبرر كيفية تعامل المدينة مع أبي نعيم وسواه، كيفية استمتاعها بجنونه المفترض والمساهمة في تشكيله ونسج الحكايات عنه.

ـ 108 ـ

صباح 25-09-2012 بدء اجتياح الجيش الثالث لمدينة دير الزور الذي جاء إثر فشل الحصار، اقتحم بيتنا نحو عشرين جندياً، تبيّن لاحقاً أنهم من الفرقة السابعة عشرة. تناقض شديد بين ثقة واهية واستعراض للقوة وأحذية بالية بعضها عسكري وبعضها أحذية رياضة وأحياناً صنادل (لعل هذا يفسر تسمية الجيش السوري بجيش «أبو شحاطة»)، شجاعة مصطنعة وابتسامات ملوية بجهد، إنهم لا يكذبون علينا، ولا على أنفسهم، بل على بعضهم ببساطة. إنهم يدركون أنهم مقبلون على الموت في معركة ليست معركتهم، بعضهم مجندون من مناطق تقصف الآن، وقسم كبير منهم من ريف دير الزور. لم يخفِ بعض الجنود انزعاجهم من مداهمة المنزل، يتظاهرون بالثقة بالنصر القادم خلال خمسة أيام، والحقيقة أنهم لا يأمنون حتى بعضهم، كانت مجموعة الفرقة السابعة عشرة جيدة التعامل مع الناس، على خلاف الحرس الجمهوري الذي فتش المنطقة في اليوم التالي وقام بنهب البيوت واحتلالها، ولعل حظنا جيد لأنهم تعرضوا لإطلاق نار عند بدء تفتيش بيتنا، فانسحبوا منه بسرعة لمحاصرة مصدر إطلاق النار.

ـ 109 ـ

في يوم الاجتياح الأول، وبعد معارك شرسة بالقرب منا، (على بعد 150 متراً تقريباً)، انسحب الجيش مع تغطية هائلة من المدفعية وقذائف الدبابات وأمطار من الرصاص، وبقيت على الأرض برك من الدماء وأسلاك الكهرباء وأعمدتها مدمرة وموزعة على الإسفلت، ومطمورة لطفل متروكة على الرصيف شكّلت معضلة في المنطقة، فكر الجميع في أنها لغم، فقد حدث ذلك سابقاً. تحاشى الناس المطمورة كاللعنة، وسرت الشائعات

حولها، وبعد الكثير من النقاشات تمكن الناس من حل اللغز، إنها مجرد مطمورة لكنها فارغة، قد يكون أحد الجنود سرقها من أسرة فقيرة، لم تملأها، أو اضطرت إلى أخذ محتوياتها، لعل الجندي الذي سرقها اكتشف أنها فارغة فرماها، أو لعلها وقعت من طفل لم يتح له ملؤها، أثناء هرب أهله، هذا ما ستكون عليه سورية بعد فترة، مطمورة فارغة مرمية على الرصيف تثير رعب الجميع وطمعهم، سيطلقون النار عليها ليتأكدوا أنها ليست لغماً، وبعد أن تثقب لن يكون لرثائهم معنى.

ـ 110 ـ

عدت للكتابة على الورق بسبب انقطاع الكهرباء، عليّ أن أعترف أني متفاجئ من صعوبة ذلك، هناك ركاكة لا أفهم سببها، أفتقد بياض ملف «الوورد» وإمكانية الحذف والتنسيق، أحس بوعورة في الكتابة على الورق.

ـ 111 ـ

جاء خبر على قناة دير الزور الفضائية قبل انقطاع الكهرباء، وهو استشهاد القائد خليل البورداني، الذي شكّل انزياحاً هاماً في تركيبة الجيش السوري الحر، إنه معيد في كلية الأدب الإنكليزي ولديه شهادة ماجستير، ترك الجامعة ليشكل كتيبة مقاتلة كان لها الفضل في حماية التظاهرات السلمية في دير الزور لفترة طويلة، الجميع يعلم أنه مثقف ومتحرر، ولعل وجود أمثاله يشكل نوعاً من الضمانة في وجه المد الإسلامي.

ـ 112 ـ

لقد قرر النظام استخدام كل الوسائل لتدمير المدينة، ودخل هذه

المرة من حيَّي الجورة والقصور، المنطقتين المتبقيتين كملاذ آمن لسكان دير الزور، وهناك نوع من الاتفاق الضمني لعدم إقحامهما في الصراع للحفاظ على أمن الناس. قبل هذا الاجتياح بدأت المدينة تتعافى ولو بشكلٍ مرضي، انتقل قسم كبير من المحلات إلى القصور، مركزنا الطبي مثلاً، محلات الثياب، مخازن الطعام، وبسطات لألعاب الأطفال، كل ذلك انتهى الآن.

ـ 113 ـ

انقطاع الكهرباء كارثة حقيقية، فهو نقلة نوعية في الحصار، بالنسبة لنا خلق معادلة معقدة، معظم ما لدينا من طعام مهدد بالتلف خلال وقت قصير، مما يطرح رفاهية وبذخاً في أكل اللحوم مثلاً خلال وقت قصير، مع التفكير في الجوع المتوحش القادم، إنه شعور غريب أن تحس بالتخمة وتفكر في الجوع في الوقت نفسه.

ـ 114 ـ

منذ فترة انتشر خبر استشهاد رامي كدرو، وهو مدرس رياضة شاب في مدرسة ابتدائية وسبق له أن درس أخي وأختي، وتحول لاحقاً إلى التيار السلفي، ومع ذلك بقي الود موجوداً مع عائلتنا، بعد أيام شاهده والدي وعرفنا أن الشهيد رامي كدرو ليس مدرساً وأن الأمر مجرد تشابه أسماء. منذ يومين وصلنا خبر استشهاد رامي المدرس، لأن الجيش لم يُعجب بلحيته السلفية، ثم تبيّن أن الشهيد شخص آخر في الستين من العمر، هذه هي حال المدينة شائعات قائمة على الشبهة، ولا أعرف فعلاً إن كان استشهاد رامي كدرو أمراً محتوماً. (آخر خبر وصل عنه أنه قد أصيب

بقذيفة وتعرض للشلل وتم نقله إلى تركيا، وبعد بضعة شهور علمنا أنه استشهد بعد أن تعرض لسبع عمليات جراحية).

ـ 115 ـ

فتش الجيش بيت جيراننا الفارغ من أهله بعد أن فتحنا لهم أبوابه، ولاحقاً عرفنا أن الحرس الجمهوري قد اقتحمه، وبعثر محتوياته، الثياب على الأرض، والأدراج مفتوحة، علب الساعات والعطور والثياب الداخلية النسائية، أتخيَّل الجنود وهم يفرغون العطور عليهم، وبشكلٍ خاص العطور النسائية (منها كريستيان ديور)، يغوون بعضهم، يتغازلون بسماجة، ويغطون عقدهم الجنسية بالمكياجات، وعلى أفواههم ابتسامات جائعة.

في اجتياحٍ سابق قام الجنود بنهب بيت أحد الجيران، وقاموا بنثر الثياب الداخلية لسيدة البيت، وأخذوا صورة زواجها وقصوا رأس الزوج من الصورة، ثم وضعوا صورة السيدة على رأس مخدة، وألبسوا المخدة «ستيان» و«كلسون» وتصببوا على مجسمهم المتخيَّل..

ـ 116 ـ

منذ أيام قليلة زارنا صديقان لأخي، وأثناء الحديث ذكر أحدهما شخصاً اسمه مرهف، فسأله أخي إن كان هو نفسه من استشهد أخوه، فردَّ الصديق: لا إنه مرهف آخر. ثم أردف إن مرهف الثاني استشهد أخوه أيضاً.

ـ 117 ـ

هل سيأتي يوم نختزل فيه كل ما يجري بعبارة: فشلت الثورة السورية في تاريخ كذا أو نجحت؟ الجواب: نعم، أو على الأقل هذا ما يعدنا به التاريخ،

كل ما يجري الآن سينسى بحرفيته وستبقى عقابيله أو مخلفاته الطائفية مثلاً، أي سيُنسى الشهداء، وستنسى البيوت المهدمة، ستعود الحدائق للعب الأطفال، وستبدو الأمور طبيعية، لكن شيئاً غامقاً سيبقى في الروح، خليطاً من الحزن والحقد ونظرات قلق وشك، تاريخاً من الرعب سيتكثف في اللاوعي، وجيلاً كاملاً عاش هذه المأساة سيربي عقده على مهل.

ـ 118 ـ

تناقض حالك يحكم الأشياء، هدوء ميت بحيث أن ورقة شجر تنزل من العريشة تثير الرعب، وهدير المدفعية المستذئب يبقر هذا الصمت، ويزيد ثقله بسبب ضجيجه المخيف.

ـ 119 ـ

آلام الأذنين باتت مألوفةً، السبب العلمي هو تشنج عضلة الركابة للحد من اهتزاز غشاء الطبل بعد كل انفجار، وقد يكون السبب أننا نفكر فيمن ستقع عليهم القذيفة.

ـ 120 ـ

شهيد اليوم (على اعتبار أن كل يوم يأخذ عدداً كبيراً من الناس، أعرف بعضهم) هو القاص والروائي إبراهيم خريط، مع ثلاثة من أفراد عائلته. لم يمت بقذيفة، بل بإطلاق نار مباشر، عجزت عن إيجاد أي سبب يفسر قتل رجل تجاوز السبعين من العمر، والمضحك المبكي أن أخاه وزير دولة في الحكومة الأخيرة عن حزب يوسف فيصل، لا رغبة عندي في تعداد محاسن الرجل، فالأمر ليس في رثائه بل في صدمة موته، لماذا؟! أو كيف؟

ـ 121 ـ

كنت على الدوام أتعامل مع الموت على أنه حدث ما خارجي، احتمال موجود ولكنه بعيد، لأن عدد القتلى ليس كبيراً مقارنة بما يقدر عليه النظام، وهناك مناطق ساخنة وأخرى تشكل مناطق آمنة، كنت أتعامل مع الرعب كما أتعامل مع رعب فيلم ما، بفاصل شخصي عنه وإن كان وهمياً، أقنع نفسي أني لست معرضاً له بشكل مباشر، الآن انكسرت هذه اللعبة، أو لم تعد صالحة ببساطة.

ـ 122 ـ

استشهد اليوم قيصر هنداوي، وهو شخص إشكالي لم أعرفه بشكلٍ مباشر، كان سابقاً متعاوناً مع أمن الدولة كما يقال، شبيحاً أو تاجر مخدرات، ولاحقاً انقلب على النظام وقاتل ضده، وأمسى قائد كتيبة سعد بن وقاص المعنية بحماية منطقة القصور التي بدأ فيها الاجتياح، وكان قيصر قد نزل مع عدد كبير من المقاتلين لإسعاف الجرحى ودفن الشهداء وتعهد بصدّ الجيش النظامي، ودارت معارك شرسة في المنطقة استشهد على إثرها. لا أعرف ما إن كان علينا أن نبكي شخصاً اكتملت أسطورته بموته وبصدقه، فقد كان الجميع يشكّك فيه، أم أن علينا أن نبكي أنفسنا ونحن نبحث عمّن يحمينا ولو كان بلطجياً أمسى ثائراً؟ فوضى عارمة في المعايير الآن، بكل الأحوال أنا حزين عليه وعلى ثلاثة من أسرة هنداوي استشهدوا اليوم، وحزين على أبناء بلدي من المجندين العبيد في الجيش النظامي الذين يحارون في المكان الذي يجب أن يصوبوا البندقية نحوه، حزين لأن عبثية الأمور فاقت كل التوقعات.

ـ 123 ـ

أخبرني أخي، وهو طالب طب، أن متلازمة حرب الخليج أثبتت أن الإنسان في ظروف الخوف تزداد عنده فعالية جذع الدماغ على حساب قشرة المخ، وتتحكم في ردود فعله لتجعلها أقرب إلى الحيوانية منها إلى الطبيعية. للأسف الشديد بدأت أدرك كيف يحدث ذلك، كيف يُخلق قاتلٌ ليس عديم الرحمة، إنه قاتل لا يفكر، أو لا يملك وقتاً للاختيار أحياناً، إنه يقتل لأن الأمور عبثية والقتل أمر متوقع ومألوف ضمن ثنائية قاتل/ قتيل. في بعض الحالات إن لم تنفذ أمر القتل فستقتل، لذلك تقتل دون أن تفكر بما يلي ذلك، التفكير رفاهية تحتاج وقتاً، وفعل القتل سريع حاسم وباتر لهذا الاضطراب، أنا أشعر بالحزن لأني بتُّ أعي ذلك، لا أتخيّله.

ـ 124 ـ

لم أعد أرغب في الكتابة، أحس أني مجنون يهذي في خضم مجزرة، الدماء تتطاير وأنا أفكر في الكلمات والصور، مجنون يحدث آخر وهمياً لأنه يعجز عن الحديث مع من حوله، لأن ذلك يزيد خوفهم المشترك، يفسد كذبة التماسك فيما بينهم، أشبه مجنوناً يحاول أن يلوذَ بعالمه الداخلي حيث يقدر أن يَشتُمَ فيه العالم الخارجي كما يشاء دون أن يتأذى، أشبه شاعراً لا يؤمن بالمعجزات، بل يؤمن بالكلام وبقدرته على الوصول.

ـ 125 ـ

في إحدى الفيلات المحتلة قربنا، لم يجد الجنود وسيلة لإشعال النار غير تحطيم الأبواب الخشبية واستخدام خشبها حطباً.

ـ 126 ـ

أحد شهداء اليوم قصته غريبة، تُوفيت أمه بشكلٍ طبيعي، (أو يشبه الطبيعي، فالاحتشاء القلبي من الصعب ألا يكون له علاقة بالتوتر المرعب هذه الأيام)، المهم اضطر ابنها إلى الخروج من المنزل من أجل إجراءات دفنها، وجده الجند وهو يحمل ما يشبه النقالة، فأعدموه مباشرة بتهمة أنه يعمل في مشفى ميداني، وبقيت أمه ميتة في المنزل محظوظةً بأنها ماتت قبل أن تسمع نبأ مقتل ابنها.

ـ 127 ـ

صوت القذائف الآن يحمل صدىً مدوياً في البداية، وفترة صمت قد تشهق فيها القذائف أحياناً وهي تسير فوقنا في البداية، ثم يعود الصمت، بعدها يأتي دوي السقوط، وسيل من الصور المتعلقة بالألم تعبر البال بشكلٍ دموي أثناء الصحو، وسرياليٍّ أثناء النوم.

ـ 128 ـ

من أصعب اللحظات التباس الأصوات، أن نسمع تداخلاً للعديد من الأصوات الحادة وسط صمت مريب، ونحار فيما إن كانت ندباً من نساء في البعيد، أو حشد كلاب تعوي من الخوف هي أيضاً.

ـ 129 ـ

بعد قذيفة أسطورية من دبابة تبعد عنا نحو 15 متراً، اهتز البيت بشكلٍ أقوى من أي مرة سبقته، انهارت أبواب الجيران الأقرب إلى الدبابة، وبعد

صمت طنّت فيه آذان الجميع وهرولت قلوبهم كفئران عمياء، بقي صوت كلب يعوي بألم واستنجاد، بقي يعوي فترة طويلة، لم نعلم ما إن قتله الجنود أم تركوه يموت على مهل مستمتعين بمنظره، لكنه كان يناجي الله أيضاً قبل أن يموت.

ـ 130 ـ

من أكثر الأشياء التي أتضايق لأجلها خوف ابنتي من أصوات القذائف، لكن ما يزعجني أكثر هو تعودها عليها حتى أنها باتت تضحك على القطة التي تفزع من صوت القذيفة، وأنا أحار بين حزني وفرحي لضحكها.

ـ 131 ـ

كثيراً ما نضع زينة في أحضاننا كي تقدر أن تنام وقت القذائف، وأحياناً نضطر إلى حملها والمشي بها كي تعود إلى النوم بعد كل انفجار، وعلى اعتبار أن وزنها ليس بسيطاً نعود إلى الجلوس حالما تغفو، من ينظر من بعيد يبدو الأمر وكأني أقف عند كل صفير للقذيفة قبيل انفجارها من باب الاحترام، وأعود للجلوس بعد زوال الدوي.

ـ 132 ـ

احتل الجنود منزل صديقٍ لي وهو طبيب، والطريف أنهم بعد أن جمعوا الأغراض الثمينة لسرقتها، ضربت قذيفة الغرفة المجاورة لهم بالخطأ، فهربوا من المنزل حفاةً تاركين وراءهم بساطيرهم العسكرية وبقايا علب السردين والطون على سرير نومه، لعل هذه الحالة الوحيدة التي ترك فيها

الجنود أغراضاً في المنزل بدل أن يسرقوه، كما أن «جيش أبو شحاطة» أمسى جيشاً بلا شحاطة.

ـ 133 ـ

دخل اليوم أحد أقربائي فيلته القريبة من بيتنا، والتي اقتحمها الجيش كما فعل مع كل الفيلات في المنطقة منذ بضعة أيام، وعلى اعتبار أنها فارغة تماماً لم يجد الجنود ما يفتشونه (وهذا هو السبب الذي دفعهم إلى عدم احتلالها)، فقاموا بتكسير ديكورات الجبصين والشبابيك، وبالوا في كل الغرف وتبرزوا في قسم من المنزل، وختاماً رسموا على جدار إحدى الغرف رسماً للرئيس السوري وهو يشهر زبه، وكتبوا عبارات تمس شرف أهل دير الزور.

إحدى الفيلات التي دخلها الجيش وسكن فيها، كانت محظوظة لأنهم لم يدمروا فيها شيئاً عند خروجهم منها ولم يسرقوا، بقيت نظيفة كما تركها أصحابها، ما عدا صورة «الإله» بشار علقت على الحائط، صورة لن يقترب منها أحد خشية لغم قد ينمو في أحشائها.

ـ 134 ـ

في 5-10-2012 هربت مع أسرتي خارج مدينة دير الزور إلى مدينة الرقة، وبقيت أمي وأخي ثابت وعاد أبي إلى دير الزور بعد يومين، وبالتالي لم أعد خاضعاً لشرط الحصار، بل إلى الهجرة الداخلية، وهذا يخلق إشكالية في متابعة الكتابة التي تقوم على تناول موضوع الحصار، لست مرتاحاً إلى أن يكون هروبي من المدينة نهاية لهذا المشروع، لذلك قررت متابعة الكتابة ورصد تأثيرات الحصار على البشر الهاربين، كشف التغيُّر في ملامح الخوف، وحضور الآخرين المغيبين في المدن المحاصرة.

ـ 135 ـ

بعد انتقالي إلى الرقة سكنت في بيت لقريبٍ لي يعمل في الإمارات، أجمل ما في البيت بار صغير في المطبخ، سعدت باكتشافه وكأنه هدية غير متوقعة أبداً. بعد ذلك بقليل شربت جناً وأنا أقنع مدى بأنه دواء (يشبه فيتامين C الفوار). جلسنا بطمأنينة غير مألوفة نتجول في الموسيقا، وبخاصة مقاطع فيديو للتانغو، مايا مشغولة في ترتيب البيت الجديد، ونديمتي ابنتي، وأنا أحس برغبة قاتلة ومفاجئة بالبكاء، شعور طاغٍ بالخذلان، أهمس: كنا نحن نستحق أفضل من هذا بكثير..

ـ 136 ـ

في مراحل الركود (أو الجزر) في المجتمع عادة يقصي من هم أقل راديكالية الأكثر راديكالية، يعاملونهم بنوع من الإهمال أو التحاشي، هذا ما عانينا منه طويلاً في سورية قبل بدء الانتفاضة بسنوات، إذ كان الغالبية ينظرون إلينا على أننا مجانين أو حمقى نعارض نظاماً حديدياً، حين كان أقصى حدود الفعل المعارض التوقيع على بيان ما! أما في مراحل المد الثوري فيحصل العكس، إذ إن الأكثر راديكالية يقصي الأقل راديكالية أو المعتدلين أو العقلانيين، الأميُّ الذي يحمل رشاشاً قد يقصي أستاذاً جامعياً، باسم الثورة، لا أعرف لم يكتب علينا أن نكون مقصيين دائماً.

ـ 137 ـ

أخطر ما يجري في مدينة الرقة هو العداء المضمر (والذي يعلن أحياناً) بين الرقاويين والديريين، التعميمات قاتلة، فهناك من يخطئ من الطرفين بكل تأكيد، هناك حالة استغلال من قبل بعض سكان الرقة عبر

ارتفاع أجور السكن بشكلٍ جنوني، وارتفاع ثمن البيوت وغلاء بعض المواد (وهذا يؤثر على الديريين والرقاويين معاً). أطرف ما شاهدته كان في حديقة الرشيد حيث أخذت مدى إلى الأراجيح، كان بقربي طفل رقاوي يحجز أرجوحة ويسأل كل طفل يأتي ليركب بعده ما إن كان من الرقة أو من دير الزور، فإن كان ديرياً رفض التخلي عنها. ما يجري هنا يحمل تناقضاتٍ عديدة، فوضع اللاجئين يسوء تدريجياً، خاصة على المستوى الاقتصادي، وهناك مشكلة المدارس والمياه والكهرباء والخدمات الصحية، كل ذلك يخلق ضيقاً شديداً في المدينة، أهلها يحسون بأن الديريين (وغالبيتهم معارضون للنظام) جلبوا كل المشاكل معهم، وأنهم السبب في الخراب الذي سيصيب مدينتهم، في حين ينظر الديريون إلى الرقاويين على أنهم جبناء ومتخاذلون. هذا العداء يتفاقم تدريجياً حتى أنه بات ملموساً في مواقف صغيرة تحدث في الشارع، إنه حصار من نوعٍ آخر، حصار الناس لبعضها، ولعل الأخبار المتفرقة عن إمكانية دخول الجيش الحر إلى الرقة تفاقمه، لأن ذلك يجلب دمار الجيش النظامي، وإن أضفنا إلى ذلك الدمار الذي أصاب المجتمع هنا بسبب الانقسام الحاد بين مؤيد ومعارض، بين من يرى أن عدم تحرك الرقة ومشاركتها في الاحتجاجات أمر مخزٍ، وبين من يرى أن بقاءها كملجأ للناس أهم من إقحامها في الصراع الدموي، كل تلك التناقضات باتت تؤثر في البيت الواحد، تسيء للعلاقة بين الإخوة.

ـ 138 ـ

أيقظتني أختي من منام غريب، كنا في منطقة الفيلات في بيت أهلي رغم تغيّر العديد من المظاهر فيه، ولدينا عدد كبير من الأقارب والأصدقاء، تحت القصف والحصار، مع تفاصيل جديدة منها أني مضطر من جديد إلى إجراء معاملة إعفائي من الجيش (قد تكون حالات

أخذ المؤجلين إلى الجيش، وخرق القانون، وخوفي من اعتقال أخي ثابت السبب)، والتفصيل الآخر هو أني اضطررت إلى إجراء عملية تتمثل في زرع المنظومة الكهربائية للغسالة (أتوماتيك) في بطن ابنة صديقٍ حميمٍ لي (لم أره في حياتي ولكنه بدين بشكلٍ لافت وحميمي في آليات تواصله)، العملية تحت التخدير العام مع فتح بطن وصدر وخياطة واسعة تحت الجلد، وعند حصول عطل كهربائي في تلك المنظومة أخذها أبوها إلى حلب (يتكرر ذكر حلب في الرقة لقربها منها) وأصلحوه بسرعة وامتدحوا عمليتي، والرعب أصابني عندما علمت أن مدى تحتاج إلى العملية نفسها، لم أستغرب العملية بل خفت من هولها، (أعتقد أن السبب مزدوج فمعظم الإسعافات التي قمت بها تتركز في الخياطة لإعادة تشكيل البنى تشريحياً وليس لإنقاذ البصر، لأنها حالات ميئوس منها، والسبب الثاني أني، قبل أيام من هربي من دير الزور، باتت الكهرباء مرادفاً للحياة، للحصول على المياه بالمحرك، لإنقاذ مخزوننا من الطعام في الثلاجة، وقد قمت بتمديد خط من الجار وتوزيعه في أقسام من البيت). في نهاية الحلم، ودعت صديقي الحميم المفترض وأنا أبكي (أنا معروف بتجلد مشاعري في مواقف الوداع، وتعاملي معها كحالة ضرورة)، كنت أتفطر حزناً على صديقي الذي لا أعرفه وأعلم أن مغادرته تعني احتمال أني لن أراه أبداً (للأمر علاقة بقرار مغادرتي سورية مع العلم أن قسماً كبيراً من أصدقائي بات خارجها، لعل هذا الصديق يمثل الكمون الإيجابي في سورية، بقايا أملي في القدرة على البقاء في بلدي، لا أعرف).

ـ 139 ـ

أطرف القصص التي سمعتها عن التظاهرات في الرقة (وهي قليلة بطبيعة الحال، وتكاد لا تذكر إن قورنت بدير الزور)، قصة حشاش اعتقل

إثر تظاهرة من تظاهرات أيام الجمعة، فأنكر مشاركته في المظاهرة وقال إنه قضى اليوم في البيت، وعندما أظهروا صورة له وهو يمشي على الرصيف، رد أنه خرج ليشتري خضرة من سوق الخضرة متسائلاً عما إن كان عليه ألا يأكل أيضاً، وعندما أظهروا صورة أخرى له وهو بين المتظاهرين، قال: محلات الخضرة على الطرف الثاني، وعليه أن يقطع الشارع للوصول إليها، وعندما أظهروا صورة ثالثة وهو يهتف على أكتاف المتظاهرين، قال: «المتظاهرون الكلاب سدوا الشارع، وأرسل لي الله شخصين يساعداني على قطعه لأصل إلى محلات الخضرة!»، وجاءت الصورة الأخيرة وهو يحمل لافتة مكتوب عليها: الشعب يريد إسقاط النظام، فردّ: «يا جماعة إنتو بتعرفوا قناة الجزيرة وفبركاتها». للقصة أساس حقيقي، ولكن الخيال الشعبي أضاف إليها كثيراً، وطرافتها لا تركز على العنف الذي يمارسه النظام مع المتظاهرين، وبالتأكيد لو كانت لدى أي محقق صورة للمتظاهر وهو يحمل لافتة، لكان أغدق عليه بـ «الدواليب» قبل أي سؤال. تذكرني هذه الحادثة بقصة أخرى حقيقية حدثت في دير الزور استمر فيها المتظاهر بالإنكار حتى أظهر المحقق صورة له وهو يهتف على الأكتاف، وعندما سأله: من في الصورة؟ ردّ: أنا، وعندما سأله: من يحملك؟ أجاب: أنت. وكان المحقق من المخبرين المشاركين بالتظاهرات.

ـ 140 ـ

أخبرتني عمتي أن الجيش الفرنسي قام باحتلال بيت خالها في دير الزور، وكانت تخرج مع العديد من الأولاد ومعهم الكثير من الحجارة، لرجم الجنود على باب المنزل، وكان رد فعل الجنود الفرنسيين أن يدخلوا إلى البيت ويخرجوا ومعهم كيس من البسكويت يوزعونه على الأطفال! تروي لي هذه الحادثة وهي ترى جرائم الجيش العربي السوري في مدينتها، جرائم لا يمكن مقارنتها بجرائم جيش احتلال..

ـ 141 ـ

من الواضح أن عنف النظام المتمادي سينتج ردود أفعال متطرفة يصعب السيطرة عليها فيما بعد، تشدداً ليس نتاجاً لحراك المجتمع بقدر ما هو متعلق بالنظام، وحشية أخرى تحاول الوقوف في وجهه، وأتساءل عما إن كان للبلاد أمل لاحقاً بالحرية أو الديمقراطية، كيف لنا أن نقنع شخصاً ما كان يعمل حصاداً أو فلاحاً أميّاً بات قائداً ميدانياً، كيف لنا أن نقنعه بعد سقوط النظام ـ إن سقط ـ بأن يعود إلى عمله القديم مع كل إمكانيات تعويضه وخلق فرص عيش مناسبة له؟ لم تتمكن ليبيا بكل ما لديها من ثروات من أن تحتوي المقاتلين في أجهزة الدولة، يبدو أننا خسرنا معركتنا كمثقفين..

ـ 142 ـ

أسوأ قصة سمعتها في الرقة هي خطف عناصر من الجيش الحر زوجة عضو قيادة فرع حزب البعث في الرقة، وقد أفرجوا عنها لاحقاً دون فدية، فقام زوجها بتطليقها، وقام إخوتها بذبحها، المروع في القصة أن الكلَّ مجرمون بشكلٍ مطلق، والزوجة هي الضحية بشكلٍ مطلق أيضاً.

ـ 143 ـ

في 26-10-2012 عدت إلى دير الزور في أول أيام عيد الأضحى، ضمن هدنة لم يصدقها أحد. عدت لأسباب عديدة منها رغبتي في رؤية أهلي، رغبتي في التجهيز قبل أن أسافر خارج البلد. وبالفعل لم تتحقق الهدنة، ولم تتوقف المعارك التي خفّتْ حدتها، لكن ليس لدرجة نتمكن فيها من التحرك في المدينة، لذلك عجزت عن إحضار قسم من أجهزة

العيادة من المشفى. الأخبار تصل عن روائح تفسخ الجثث في الجبيلة تحت ردم المنازل، المدينة تدك فعلاً بكل أنواع القذائف، لم تتغيّر الأوضاع هنا عنها في الوقت الذي غادرت فيه المدينة، مع أن الخوف من القتل بات أقل نسبياً، ودخلت أصوات راجمات الصواريخ كعنصر جديد وهي تفح بتواتر سريع، وأسراب من الذباب والبعوض الضخم بسبب أكداس الزبالة الهائلة التي لا تجد من يزيلها. وبالتأكيد، الوحشة أشد، إذ غادر غالبية السكان المنطقة ولم تبق غير الكلاب وعناصر من الجيش النظامي تتجول بين البيوت لتعرف البيوت التي تركها أصحابها حديثاً لينهبوها. أطرف القصص حول ذلك جرت مع جارنا الذي خرج مع والديّ في السيارة لشراء بعض المواد التموينية من منطقة الجورة القريبة، وحين عاد بعد ساعة ونصف اكتشف أن الجنود سرقوا منزله. من الواضح أنهم كانوا يراقبونه عن كثب، ولعل أهم سؤال هو لماذا لم يسرقوه وهو موجود؟ أفترض أن السبب هو تعليمات حالية لا تحمي سرقة منطقة الفيلات، ولكنها لا تمنعها إن حصلت في البيوت الفارغة، هذا مجرد استنتاج، خاصة أن بيت جيراننا المقابل الفارغ سُرق للمرة الثانية من قبل الجيش.

ـ 144 ـ

كان الكابوس بطيئاً، بدأ بتفاصيل عديدة أخلط فيها بين منزلي في قدسيا في دمشق ومشاهد من مشفى ابن النفيس وتفاصيل من البيت الذي أقمت فيه بالرقة، وبالتأكيد منزلنا في دير الزور، وكلها في الموقع نفسه في المنام، تفاصيل فيها خلاف مع بائعي فواكه، وبيوت يسكنها أناس ليسوا أصحابها دون أن أعلم ما حلَّ بأصحابها، وفجأةً هناك ما يشبه رغوة الصابون على جبلٍ قريب (قاسيون)، بعد ذلك نظرت من نافذة غرفة الجلوس في منزلنا في ديرالزور، فرأيت ندف الغيم تنزل إلى الأرض

دون أن تلامسها، على شكل كتل تضيق بشكلٍ مثلثي نحو الأسفل مع ضباب كثيف، إن السماء تنهار لكن ببطء شديد، المنظر مدهش الجمال، اتجهنا نحو الباب الرئيسي ونظرت من العين الساحرة، فرأيت القطتين اللتين بدأت أمي بإطعامهما من أجل مدى، كانتا مبللتين وتسعلان بشكلٍ غريب، ثم بدأتا بالفحيح إحداهما على الأخرى، عندئذ أدركت أن الغمام سلاح كيماوي ما، واجتاحني رعب أن يدخل الغاز إلى البيت مع إدراكي استحالة منع ذلك، أفقت على أصوات تبادل لإطلاق النار قريب تحت نافذة الغرفة التي أنام فيها، مع أصوات لجنود النظام ورعبي من أنهم يريدون اقتحام منزلنا.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى شائعة قديمة نسبياً في المدينة عن وجود قذائف تحوي ما يشبه القطن، اعتقد الناس أنها سلاح كيماوي ما، لأنها كما قيل تقتل على مسافة واسعة من مكان سقوطها. أنا أشك في مصداقية الشائعة، لعدم تماسك روايتها رغم أني لا أستبعد استخدام النظام للسلاح الكيماوي إن عجز عن اقتحام المناطق المقاوِمة.

ـ 145 ـ

دائماً كنت أفكر في أن الزمن يحلّ الكثير من المشاكل، يغطي الحقد بنوع من المكياج، أو أن الحقد نفسه يتآكل، الخلافات مع الآخرين تبدو تافهة عندما تبتعد عنها فترة مناسبة، لكن ما يجري الآن لا أعتقد أن الزمن قادرٌ على حله ببساطة، بل قد يحصل العكس، قد تتحول هذه المرحلة إلى بعبع، أو كائن آخر أسطوري مخيف إلى حد الموت، قد تستدمي المشكلة بدل أن يخفت صليلها، ولا أرى بوادر وعيٍ في المجتمع نحو السلم الأهلي، بل العمى يزداد ثقلاً تحت وطأة الألم.

ـ 146 ـ

بدأ البشر بالاستسلام فعلياً، فبعض من عادوا إلى المدينة بدؤوا بجمع أغراضهم أو ما بقي منها، ثيابهم الشتوية، بقايا تحفهم الثمينة أو أموالهم المخبأة التي لم تكتشف بعد. أحد التفاصيل المضحكة أن جارنا جاء وهو يحمل معه ثلاثة صحون وثلاث مزهريات مزينة بذهب عيار 24 نسي أن يسرقها الجنود أو بشكلٍ أدق لم يدركوا قيمتها فتركوها، وطلب منا أن نحتفظ بها لأنه لا يجرؤ على أخذها خشية حواجز النظام، معظم الناس تغادر نحو مستقرات جديدة آمنة حالياً، الرقة أو الحسكة غالباً، مع العلم أن الجميع يدرك في قرارة نفسه أنه لن تبقى أي منطقة آمنة في سورية.

ـ 147 ـ

كتبت منذ أيام عن كابوس رأيت فيه القطتين اللتين تربيهما أمي من أجل مدى تتعرضان لغازات السلاح الكيماوي، رأيتهما تعطسان وتبدأان بالفحيح كمقدمة للموت. للأسف تلك النبوءة بدأت بالتحقق جزئياً، فقد عادت القطة البنية «الشأرة» (الشقراء) كما تسميها مدى، وجدناها في أحد أحواض الحديقة ملتفة على نفسها، دون أن تقترب من أحد، ودون أن تأخذها اللهفة نحو أمي كالعادة، مكتفية بأن تكون قربنا دون أن تتحرك أو تستجيب لأي تحفيز بغير فتح العينين وإغماضهما. إنها تموت، نفَسها متسارع ولا تقدر على أن تتحرك، لم نعرف السبب، ولم نرَ أي جرح واضح عليها، حاولنا إطعامها فرفضت. أقصى ما استطعنا فعله هو أن نسقيها مضاد التهاب جرثومي معدّاً للبشر، فقد نجح ذلك في حالة قديمة لقطة أخرى، لكننا لم نتوقع أي نجاح هذه المرة لسوء حالة القطة، فداحة الموت الهائلة التي تغرق البلد لم تخفف من هول أن يأتي كائن ما ليموت بقربك، ليموت في البيت، بدل أن يموت في الطريق. لا أعلم بم كانت تفكر، ولكني

أحس بحزنٍ إضافي وعجز أعمق، وأفكر رغماً عني في الذين يموتون تحت الأنقاض أو في مشفىً ميدانيٍّ ما، أخذوا إليه كيفما اتفق، لعلهم يتمنون أن يموتوا قرب أهلهم، وهم يعلمون أن هناك من يحبهم، أن ينظروا في وجه المحتضر في اللحظات الأخيرة، من حقهم أن يموتوا بشكلٍ محترم إن كان موتهم بطيئاً، أنا لا أتحدث عن الموت نفسه بل عن شكله، أتحدث عن الحد الأدنى من الإنصاف، عن هذه الوحشية الجارفة، عن طوفانها الذي يغرق البلد.

ـ 148 ـ

كثيراً ما كنت أفكر في فكرة حرق الذات كشرارة لما يسمى بالربيع العربي، محمد بوعزيزي تحديداً، ثم مقلّديه المتعددين خاصة في مصر، كان السؤال الأساسي لماذا النار وليس القفز من سطح بناية أو إطلاق النار على الرأس مثلاً؟ هناك العديد من الطرق ليقتل بها المرء نفسه، لكن الموت حرقاً أشد وطأة، إنه عقاب للآخر، موت يأخذ وقتاً كافياً دون رتابة، مغرقاً في الألم، في الصيغة الأكثر حضوراً للجحيم. إنه يقدم تناقضاً غريباً عبر استثمار الموروث الديني الذي يعتبر النار أشد وسيلة للعقاب (عقاب الخصم في هذه الحالة) مع التضاد مع الدين الذي يمنع الانتحار، إنه موت يسلب الآخرين فرصة ذمه باعتباره فعلاً كافراً، موت يجسد وحشية النظم الديكتاتورية، موت عاطفي إلى حد امتزاج الذات بالعدو، ومعاقبة العدو بالذات المسحوقة أصلاً، بتحميله وزر ألمها ومصيرها، كما أنه يحمّل المشاهدين وزر الصمت عن الظلم، وزر عدم التدخل لوقف هذه المأساة. إنها إدانة للجميع وبشكلٍ قصويٍّ، فعل الموت حرقاً قام على الفرادة، ولهذا لم يكن لتكراره الوقع نفسه، وبالتأكيد لم يكن الأول من نوعه، فقد أُغْرقت أوروبا (ألمانيا) بشباب أكراد يحرقون أنفسهم احتجاجاً على اعتقال

عبدالله أوجلان، لكن الفعل وقتذاك كان في ساحةٍ بعيدة عن الحدث، ولهذا جاء دراماتيكياً يستجدي التعاطف، ولم يأت إدانةً أو صفعةً للأجهزة القمعية، تجريداً لها من قدرتها على القتل. إنها حرب خاسرة مع ميت لن يزداد موتاً مهما عذبوه، ومن اللافت حرق امرأة إسبانية نفسها منذ أيام قليلة، عندما حاولت الشرطة إخراجها من منزلها حين عجزت عن سداد الرهن، هنا الفعل جاء احتجاجاً في أرضه مما فرض على الحكومة تقديم تنازل لجميع العاجزين عن سداد ديونهم، وذلك بعدم إخراجهم من بيوتهم لمدة عامين، اكتمال أسطورة الحرق يحتاج إلى نهاية تراجيدية، إلى موت المحترق رغم أن بقاءه على قيد الحياة أصعب ويحمل معاناة أكبر، لكنها طويلة الأمد والأهم أنها رتيبة.

أعود إلى فكرة الحرق، وأفكر ماذا كان سيحدث لو قتل البوعزيزي نفسه برصاصة، على الأغلب لم نكن لنسمع به أساساً، وستوجد عشرات القصص حول سبب موته أغلبها من نسج النميمة الشعبية، حتى لو أعلن سبب انتحاره، لم يكن ليتحول إلى تلك الشعلة، اللهيب المعدي، الشجاعة المجنونة المرتدة على نفسها، ولسلب نفسه غواية الموت، غواية تحميل الآخرين ذنباً رصاصياً يصهر الرتب العسكرية. لا أعلم بالضبط بمَ كان يفكر، هل كان يتوقع أي رد فعلٍ جماعي على موته؟ موتُ خالد سعيد في الاسكندرية أثار الكثير من المظاهرات الواسعة وقتذاك، مع فارق أنه مات بوحشية على يد رجال الأمن، أي أنه شهيد/ ضحية، لم يملك الخيار في موته. أما البوعزيزي، فقد ملك الخيار، ومضى نحو النهايات المطلقة، وجعل من التناقض حالة غير قابلة للمساومة، هناك غواية مرعبة في موته، وأتساءل: ماذا كان سيحصل لو تبدى أن النظام التونسي بقوة النظام السوري؟ لو استمر زين العابدين بن علي بقتل شعبه حد الإفناء؟ ما الذي سيحصل بأسطورة البوعزيزي الجميلة؟ على الأغلب كانت ستُنسى في خضم المذابح كما يحصل لدينا. من كثرة أسماء الشهداء/ الرموز

لم نعد نتذكرهم بدقة، أو أننا نخطئ في أسمائهم. الأسطورة هنا لم تبق أسطورة، فقدت تكثيفها وندرتها التي تجعل منها حدثاً فريداً، لقد تحولت إلى واقعٍ معاشٍ يغمره الألم، الألم نفسه الذي يعمي الحواس ويمنع التفكير، الألم الذي يدفع صاحبه نحو البحث عن طوقٍ للنجاة، لا لأن ينظر إلى قعر المحيط حيث شهداؤنا بعيونهم الباسمة، ألمٌ لا يسمح لنا بتوديع الموتى كما يليق بهم، بأساطيرهم اليتيمة، ونحن نعلم أننا سنحزن على عدم امتلاك الفرصة لتوديعهم أو الاحتفاظ بصورهم، ولكننا لن نندم كثيراً لأننا نعلم أن الأمر بات فوق قدرتنا على التحمل أحياناً. أفكر في البوعزيزي، في دمه المحروق على الإسفلت، في السيارات التي تعبر فوق مكان حرقه، في الحياة التي تغرق في التفاصيل المكرورة لأحداثها بعناد صلبٍ، أفكر في حشود الموتى، في أشكال موتهم، في الموت نفسه، بعيداً عما يحمله الأحياء للموت فيما بينهم، في الموت نفسه باعتباره فعل إفناء، باعتباره بتراً، مساحةً شاسعة من الفراغ الأسود، كنت أكتب عن الموت باعتباره حدثاً شعرياً، أسطورياً، حزناً ويأساً، وأملاً ملسوعاً، باعتباره مبتدأً لعالمٍ آخر، كنت أحلم بعالم الموتى، حواراتهم وأشكال التقائهم وتأثيثهم للموت بتفاصيل الحياة نفسها، لكني الآن أفكر فيه باعتباره نهاية وسكوناً. الأمر مفزع. بالتأكيد، السؤال التقليدي لمثقفي اليسار: «هل كانت الثورة في تونس ستأتي بالبوعزيزي أو بدونه لاكتمال عوامل نضجها؟» مبررٌ، ولكن هذا لا يلغي موته، أسطورته تتركه في الموت لتمضي مع الأحياء، في شرطٍ ساعد على استمرارها. شرطٌ قاسٍ يضغط باتجاه تحولاتٍ جارفةٍ في المجتمع، شرطٌ أحيا الأسطورة، لكنْ إلى متى؟

ـ 149 ـ

سقط مطار الحمدان العسكري في البوكمال، ويبدو أن الهدأة التي حصلنا عليها في الفترة الماضية مهددة بالزوال، نوع من التوازن تحاول فيه

الحياة أن تعود إلى الأحياء المنكوبة التي سقطت في يد الجيش السوري، في حين يستمر القصف على أحياء مستعصية عليه كالجبيلة والحميدية، أهم مظاهر الحياة الخافتة عودة المدارس إلى عملها ولو بشكل مختصر ومشوه (إذ يحصل احياناً أن يمنع الجنود الطلاب من الذهاب إلى مدرسة حسان العطرة بسبب وجود راجمة الصواريخ قرب المدرسة) ومحاولة نشر شرطة السير أو عودة عمال النظافة إلى كنس أكداس القمامة. ما يحدث خطير فعلاً إذ إن غياب الدولة كنتيجة طبيعية للصراع الشرس أرهق الناس فعلاً، وعودة بعض مظاهر الدولة كمحاولة من النظام لتكريس فكرة أنه حامي الدولة، رغم أنه كان سبباً لتخلي مؤسسات الدولة عن دورها في مراحل مبكرة من الصراع، هذه المحاولة بدأت بخلق تصدع في شعبية الجيش الحر، نتلمسها من خلال خطاب بعض الناس الذين كانوا مناصرين للجيش الحر سابقاً، إنهم يريدون نهاية لهذه المعاناة الطويلة، حسماً ما ولو كان من طرفٍ لا يثقون به. الخطر في الأمر أنهم لم يعودوا قادرين على الوثوق بأي شيء، بكل الأحوال هذه المزايا البسيطة مهددة بالزوال، لأن القصف اليوم كان أشد من الأيام السابقة وسقط تسعة عشر شهيداً في المحافظة.

ـ 150 ـ

عليّ أن أعترف أن رغبتي في الكتابة باتت أقل، أو فلنقل إن إيماني بهذا الكائن الكتابي المشوه لم يعد عميقاً، لم تعد الكتابة فعلاً عميقاً وصلباً يوازي قسوة الواقع، لعل فقداني للأمل هو السبب. أحس باللاجدوى في هذا المكان، أعلم أن الحرية التي قامت لأجلها هذه الانتفاضة باتت بعيدة عن التحقق، بسبب طوفان العنف، وأواسي نفسي بأسئلة مثل: هل كان من الممكن تجنب هذا العنف؟ الجواب بالتأكيد لا، لأن النظام فرض العنف على الجميع، وأسأل نفسي بسذاجة ما إن كان المثقفون قادرين على التأثير

في الحراك، وأعتقد أن الجواب بعد هذه الفترة سيكون أقرب إلى السلب. أفترض أن الدوار المنهك في البلد والحقد المتنامي لن يسمح للعقل بالفعل، هذا لا يلغي ضرورة دورهم ولكنه يجعله أقل فاعلية. أتذكر أني كتبت هنا فيما سبق توقعاً أشبه بأحلام اليقظة عن دور المثقفين القادم بعد نهاية الصراع، أنظر إلى تلك الفكرة بنوع من السخرية الحائرة ما بين الشفقة والاستغباء، هُزم المثقفون في سورية، بل لم ينالوا شرف الهزيمة لأنهم لم يحضروا المعركة واكتفوا بدور المشجعين في حلبةٍ مليئة بالموتى. أكتب هذا الكلام وأنا حائر ما بين سفري إلى السعودية أو ليبيا، أحاول الهرب خارج البلد دون أن أعلم ما إن كنت سأعود إليه، أحاول الهرب من أفكارٍ وهواجس تملكتني في النصف الأول من حياتي، لم يبق منها غير شعورٍ طاغٍ بالخزي والخذلان. لم تعد الكتابة تكفي لإيهام النفس بأن العالم قابلٌ للتوازن، للفضح والتعرية بقصد الشفاء. ما الفائدة من الكتابة إن كانت هذراً لمحكومٍ بالإعدام؟ كل كتابة تفترض قارئاً متفاعلاً، تفترض آخر ما قد يتلبسه الكاتب، والأهم أنها تفترض القدرة على الاختيار، أو على الفعل على الورق على الأقل. أحس الآن بالعجز الكامل، لا حماس عندي لإعادة فتح عيادتي الثانية ريثما أتمكن من مغادرة البلد، لا حماس لسماع أي خبر جديد، كما أني غير قادر على متابعة أحداث سياسية هامة، قد أخجل مما أكتبه الآن أو أفكر فيه بعد فترة، وقد يكون ذلك سبباً إضافياً في ترددي أمام الكتابة.

ـ 151 ـ

الأسطورة الرمز فكرة ظلت تسيطر عليّ في اليومين الماضيين، أجريت استبياناً صغيراً لتذكّر اسم إبراهيم القاشوش مبدع أرجوزة «ارحل يا بشار»، (مؤديها وليس مؤلفها على وجه الدقة)، وجدت أن النصف تقريباً

تردّد ثواني قبل تذكر اسمه، القاشوش الذي يستحق بقوة أن يكون أسطورة بات مهدداً بالنسيان. وأفكر في سؤالٍ ثانٍ: لماذا لم تتطور أسطورة رياض الترك مثلاً أو قسم من السجناء السياسيين لتصبح مثل أسطورة مانديلا؟ مع الأخذ بعين الاعتبار فرق النضج السياسي وملاحظاتي الشرسة على منطق رياض الترك الذي لا أعلم ما إن كان حياً أو ميتاً أو أين يعيش ببساطة، أفترض أن تطور الشرط السياسي الاجتماعي لم يسمح للأسطورة بالاكتمال بعيداً عن العوامل الذاتية التي لا تلعب دوراً كبيراً في حالتنا هذه، والأهم أن مسارات المجتمع لم تسمح بذلك، فالفرق الأهم هنا بالنسبة لي ارتباط قضية مانديلا بمشروع تحرري ذي ملامح واضحة، مع الأخذ بعين الاعتبار مسارات العنف فيه واحتمالاته الدائمة في مواجهة المصالحة وتغليب المصالحة على الثأرية. إن مانديلا ببساطة رمز لمشروع له حد أدنى من الوضوح وكيان سياسي مرافق، في حين أن الحراك في سورية لم يملك هذا المشروع، مما بدد الرموز في دوامة الأحداث المفجعة اليومية، بل وصل التناقض إلى حدود أن الرمز بات في الخصم، إذ إن بشار الأسد يمثل الرمز للمدافعين عن النظام، والرمز الواجب إسقاطه من قبل المناهضين للنظام، إنه تكثيف للرمز عند الطرفين وهذا قاتل، وبالتالي لم يعد الفعل وحده مصدر الأسطورة، بل بات التعاطي مع الأسطورة المجال الحيوي لبنائها، المتلقون هم من يصنعون الأسطورة، وليس البطل أو الرمز نفسه.

ـ 152 ـ

عملاق ضخم بطريقة مضحكة، مقطوعَ الساقين يزحف على بطنه ضمن خطوطٍ عشوائية تتقاطع في ساحة فارغة مُغْبَّرة، لم يكن ينزف، ولكني لا أتذكر شكل فخذيه أو ما تبقى منهما. بعد زمن غير محدد يُرى

مقطوع اليدين والساقين يجثم على ظهره، يئنُّ، رقبته تتلوى وكأنه يقيس بنظره أبعاد المكان، قفرٌ لا يوجد فيه سوى جثته الضخمة كقاربٍ يَبلى على التراب، قارب يحلم بالغرق، لكنه الآن متروكٌ أمام سماءٍ ليست مميزة في شيء، لا غضب أو حزن أو شماتة فيها، سماء لا مبالية. العملاق في الأسفل يفكر بمرارة في حياديتها البليدة، يفكر في عجزه عن تذكر أي شيء، عجزه عن التفكير في أي حركة يمكن أن تساعده، لم يعرف ما أصابه، أو من قطع يديه أو ساقيه، لم يكن متأكداً من عدد أطرافه، أو كيف فقدها وبأي ترتيب، هل تألم؟ أم إنه فقدها ببساطة كذبابة ناشفة تسقط عن حافة النافذة. النافذة يا إلهي؟ إنها فكرة دافئة، هل توجد هنا أي نافذة، علامَ تُطلّ؟ هل هي نافذة تطل على الخارج؟ أو إنه ببساطة في الخارج والنافذة تطلّ على الداخل، من يوجد في الداخل؟ ألا يسمعه إن صرخ؟ بم سيفيد الصراخ الآن؟ لقد صرخ زمناً طويلاً ولم يأتِ أحد، لم يسمعه أحد، أو لعله سمعه ولم يقدر أن يأتي، لعله فكر في ما يفعله بهذه الجثة الضخمة إلى حدٍّ مخيف، أو لعله ما زال يفكر حتى الآن، كيف سيحركه! هل يأتيه بطعام أو شراب؟ لعله سيجاذبه أطراف الحديث فقط، والأهم أنه قد يفسّر له كيف وصل إلى هنا، أو ما هو هذا الهنا، الشاسع والمقفر والمخيف، قد يأتيه بما يشبه الأطراف الاصطناعية، قوالب مجوّفة يغرز فيها ما تبقى من أطرافه، استغرق في تخيُّل حركته مع أطراف يابسة لا تُثنى، سيبذل جهداً كبيراً ليتوازن وهو يسير، لن يعرف إلى أين ولكنه قد يكتشف ذلك، سيغدو منظره غريباً ومرعباً، لكنه لن يكون مثيراً للشفقة كمنظره الآن. لا، ذلك غير معقول، وبالتأكيد لن يجلب له أي شيء، لأنه لم يكلّف نفسه عناء السؤال عنه، ثم لمعت الفكرة فجأة، لعله هو الآخر مقيّد أو مقطّع الأطراف؟ أو ليس من الممكن أن يكون قد مات، على فرض أنه مصاب منذ زمن طويل؟ شعر بشفقةٍ غريبة تجتاحه، لم يدر ما إن كانت شفقته على نفسه أم على الآخر المجهول، أم شفقة الآخر المجهول عليه، الشفقة غير

مرئية، أو ملموسة، إنها شعور بالسقوط والدوار، وهو لا يسقط فعلياً، إنه يرفرف بأشباح أطرافه فحسب، يصرخ بوهنٍ وكأنه يسمع صراخ شخصٍ آخرَ بعيدٍ، شخص قد يكون على الطرف الآخر من النافذة غير المرئية، لم يبق له غير الصوت والنظر، وأفكارٍ تتطاير كالخرز، لماذا الخرز وليس أي شيء آخر؟ لا يعرف بصدق. إنه متأكد من وجود حياةٍ ما خلفه، حياة كان فيها ضخماً و.. جميلاً، ليس متأكداً من ذلك، لكن ضخامته توحي بقوة ما وليس بالحمق فقط، من الصعب أن يحدد ما إن كان أحمقَ فعلياً، فالحمق حقل للمقارنة والقياس عادة، وهو لا يملك ما يقيس به، وبشكلٍ عام الأحمق يُقيّم عادة من قبل الآخرين، ثم من قبل صاحبه كانعكاس لتقييم الآخرين لحمقه، تقييمٌ ما لتقييمهم يتأثر بقدرته على المحاكمة، ولكنه يكون أحياناً أخطر من حمقه الأصلي، لكنْ، أين الآخرون؟ من هم؟ أين أهله، زوجته؟ هل هو متزوج؟ هل سيغيّر من الأمر شيئاً إن نادى على زوجته أو أبنائه؟ أبناؤه! هل له أبناء، أخذته فكرة شكلهم، هل هم بضخامته العاجزة، أدرك فجأة أن الحمق في حالته ناجم عن التناقض الشنيع بين ضخامته المخيفة وعجزه الفادح، وذاكرته المعاقة باعتبارها جزءاً من ذلك العجز، لكنه ليس مذنباً في ذلك، بل إن أي حركة منه تفاقم هذا التناقض وتزيد حمقه، لعل هذا ما يُنفّر الشخصَ الجالس وراء النافذة، صَمتَ فترةً لتخف وطأة حمقه المفترض، وبعد وقتٍ قصير تخلى عن تلك الفكرة، وعاد ليئن. كان يفكر في أي شيء قد يعطيه فكرةً عن ماهية المكان الذي يوجد فيه، حاول تذكّر أي فعلٍ كان يؤديه بيديه قبل أن تُقطعا، ستكون بداية جيدة، شُرْبُ الماء مثلاً، تفريش الأسنان، لم يكن متأكداً من وضع أسنانه، هل هي كاملة أم ناقصة، لم يحس بأي ألم في فمه، حاول أن ينطق بعض الحروف ليتأكد من سلامتها، السين تحديداً لأن لفظه يحتاج إلى سلامة الأسنان الأمامية، وهي أكثر ما يتعرض للإصابة في الرضوض على فرض أنه تعرض لاعتداء ما، صرخ بأعلى صوته: سسسسسسْ، تبدو سليمة، على ما يعتقد، هناك بعض

الصدى أو ما يشبهه يشوش السسسسّ، لم يكن متأكداً إن كان يسمعها من الخارج أم من الداخل كما يسمع المرء نفسه عندما يفكر بصمت. غزاه الشك مرة أخرى، آهٍ لو يأتي أي شيءٍ لينهيَ هذه الهواجس، بمَ كان يفكر قبل ذلك؟ بأبنائه، أجلْ، لا، كان يفكر في أي فعلٍ كان يقوم به بيديه أو ساقيه، الجري بالتأكيد، حاول أن يتذكر كيف كان يركض، لم يتذكر غير تصوره عن الركض بشكلٍ عام، وليس ركضه هو، تعرقُه، خفقان قلبه، الضجيج في رأسه، نشفان ريقه، لهاثه، نظره الزائغ، لم يستطع تحديد هذه المعالم، بل بقي يفكر في الركض كفعل تلافٍ للسقوط، سقوط مؤجل بقفزة تتشنج فيها كل عضلات الساق، قفزةٍ محملةٍ بجرعة أمل، أمل بالطيران، بالارتفاع المستمر كشهيق لا يتوقف، يليها سقوط حتمي، يا إلهي السقوط مجدداً، إنه يشبه ما يمكن أن نسميه بالشفقة، لكنها هذه المرة شفقة عامة، ليست على شيء محدد. أخذ يفكر في المشاعر الأخرى، في الغضب، الألم، الحقد، أجل إن الحقد مغرٍ، الكره إلى درجة ربط النفس بالمكروه، إنه أشد من الحب، إنه ارتباط أعمق وعفوي لا يحتاج إلى جهد عقلي لتمتينه، إنه ببساطة يحفر بنفسه في الداخل، الحقد أشد مقاومة من الحب تجاه الملل أو الروتين، كان متأكداً من أنه يحقد على شيءٍ ما، لكنه لم يتأكد من ماهيته، لكن ما هذه الكلمات؟ يتأكد، الملل، الروتين، عفوي، إنها كفيلة بتشتيت ذهنه في اتجاهات متعددة، يحس أنه على مفترق طرقٍ واسع، ولكنه ملقى على غبارٍ ميت مقفر، وهو لا يقدر إلا على لوي عنقه نحو السواد المغبر حوله، سواد يتمدد ويتقلص، يتنفس بانتظام.

ينقضي زمنٌ غير محدد، إنه ملقىً في الوضعية نفسها، لا شيء تغيّر غير أنه لم يعد يقدر على الأنين، يفتح فمه على اتساعه، دفعات الهواء تخرج صامتة، لا شيء غير حفيف جثته التي تبدو أكثر ضخامة، دون أن يتأكد من ذلك، لأن الضخامة تحتاج أيضاً للمقارنة، إنه يحلم بفكرة المقارنة الحسية الملموسة، وليس مقارنة الأشياء في ذهنه، لأن حجومها وصفاتها

تتغيّر في الذهن، لكنّ، صوته، أين صوته؟ حتى صوته الداخلي بات مغمغماً، هل العيب في أذنيه ببساطة، هل بات أصمَّ، لا، إنه يسمع حفيف جسده على الأرض، بل إنه يكاد أن يسمع تنفس هذا السواد، إن صوته غائب، حباله الصوتية مقطوعة! لم يسعه التأكد من ذلك، ولكنه أكثر الاحتمالات توافقاً مع وضعه، هل تكون مصابة من كثرة الصراخ؟ ليس متأكداً، بكل الأحوال سيمنحها وقتاً لترتاح فيه علّها تعود للعمل. سيعود للنوم قليلاً، لكنه بصدقٍ لا يقدر أن يميز بين النوم واليقظة، بين الأحلام الغائمة والعمومية التي تأتيه وبين أفكاره المتطايرة كحبات الخرز. عدنا، لا، لن يشتت فكره في التفاصيل، المهم الآن أين صوته؟ من قطع حباله الصوتية؟ ومتى؟ من المستحيل أن تنقطع وحدها، يا ترى هل هو مريض بمرض ما يجعل أطرافه وحباله الصوتية تنقطع فجأة؟ ولكن إن كان ذلك صحيحاً فكيف مُحيت ذاكرته؟ يعود فجأة للصراخ بعنف لكنّ دون أي صوت، الصمت يصبح أعمق ببساطة، إنه كضبعٍ في قفص يعجز عن الهرير أو العويل، ما كان اسم صوت الضبع، لم يكن مهماً أن يتذكر، فذلك لا يشكل فرقاً بالنسبة للضبع الخائف والحاقد، عويل يستطيع أن يتخيّله على شكل ضحكٍ خائف، ولكنه مرعب، إنه يصرخ بصمتٍ مخيف وقطرات العرق تلمع على جبينه، يحس بها وهي تنزل، كان يشبه مشهداً سينمائياً من فيلم صامت مع كل المبالغات التي تحاول أن تعيض عن فقدان اللغة، هل يبدو أشد حمقاً الآن؟ ليس مهماً لأن الحمق يقاس بين الأحياء وليس عندما يكون المرء وحيداً، خاصة عندما يكون ناقصاً، أطرافه تشكل نصف جسمه على الأقل، وبالتالي ليس من حق أي أحد أن يحكم عليه، أين هو هذا الأحد الغائب؟ أين هو نفسه؟ ما هو هذا السواد اللامنتهي؟ هل هو في قبر فسيح؟ أين بقية الموتى، أين الملائكة أو الشياطين؟ أين حشود الموتى؟ أين الدود الذي يأكلهم؟ أيكون في الجنة؟ لا، هذه ليست الجنة بالتأكيد، لعلها مرحلة انتقالية في صعوده إلى الجنة؟ لكنّ، لمَ يصعد دون أطراف؟ هل يحاسبون أطرافه؟ لكنّ، من

يود أن يُقسِّم الإنسان بهذه الطريقة! من الصعب أن يكون في عالم ما بعد الموت، لأن ما هو فيه عذابٌ لم يُخبره أحد بوجوده، الأنبياء لم يعلموا به، أو لعلهم علموا وأخبروا الناس، لكنه ببساطة نسي ذلك كما نسي كل حياته الماضية، لا، الأمور في الدين أكثر بساطة وإن كانت غير منطقية أحياناً، لكنها لا تصل إلى هذا الحد. خامرته شكوكٌ حول كائناتٍ فضائية أو سحرة أو جن، قمعها بسرعة خشية أن يصدقها، هل هو في قعر أحد الأقبية في فرع مخابرات ما؟ هل يطبقون عليه نوعاً جديداً من التعذيب، أو دراسة طبيّة غير مشروعة؟! هل هو في قعر محيط، يعجز عن الغرق؟ أيكون على طاولة عمليات ما تحت التخدير العام، هل هناك من يشقّ جسمه في هذه اللحظات؟ حاول التركيز، إنه لا يحس بشيء، لعله مجرد شخصٍ تحت ركام بناية انهارت بسبب زلزالٍ أو قصفٍ عنيف لا يذكر سببه؟ كم من الوقت قضى، لا بدَّ أن يأتي أحد لانتشاله من تحت هذا.. الفراغ. أو لعله مجرد شاعرٍ أخرق (يتلبسه شيطان كافكا) يتسّكع في الفراش والقذائف تعوي قربه دون أن يفلح في النوم؟ بصدقٍ لم يكن يعلم.

ـ 153 ـ

أفكر في قلق أمٍّ مثلاً على ابنها لأنه لا يجيب على الموبايل، (أفكر في ذلك لأني أود الهرب من التفكير في أهلي الذين سافروا خارج المدينة ولا أقدر على التواصل معهم لأن تغطية الجوال شبه معدومة)، أفكر في تفصيلٍ عادي في الحياة الطبيعية، في متاهة الاحتمالات التي تضيع فيها الأم، هل أضاع جواله؟ هل سرقه أحدهم منه؟ أم أن البطارية فرغت؟ أو تلف الجوال لأي سبب؟ هل هو يغلقه عمداً كي لا تزعجه؟ (وهذا غير متاح في حالة أهلي)، هل هناك عطل في الشبكة لديها أو لدى ابنها؟ هل هو في طريق العودة ويمر بنقطة لا تغطية فيها؟ هل عطلت السيارة في تلك

النقطة؟ المهم ليس تعدد الاحتمالات بل ضياع الأم فيها، في العادة يأتي رد الفعل على هذا القلق بتطمينات تهدف حقيقةً إلى إسكات الأم وقطع سيل عتابها أو نقّها أحياناً، لكنّ، هل نتخيَّل فعلاً هذه المتاهة التي يتآكل فيها أحدهم؟!

ـ 154 ـ

بعد أن تفقد المدينة مجاذيبها، باعتبارهم مصادر نميمة محببة، تبدأ بإنتاج شخصياتٍ جديدة لتحلَّ محل القديمة، شخصيات تملك كمونها وشرطها الحكائي مع عدد من المواقف البسيطة التي تُضخَّم في السرد الشعبي، ومن المؤكد أن بعضها يُؤلف من الرواة الشعبيين لتتحول القصة إلى حقيقة يصدقها الجميع. أشهر هذه الشخصيات شخص اسمه حج كَرّوم، مسن في الثمانين من عمره تقريباً، مصاب بنقص سمع واضح، ويتمتع بحيوية جيدة، والأهم أنه آخر من بقي في حارة كاملة مهجورة، وحده مع عناصر الجيش. أولى القصص المؤكدة أنه وبسبب صممه الجزئي لم يسمع الجنود وهم يخلعون الباب، وفوجئ بأحدهم في المطبخ يأخذ جرة الغاز، فسأل الجنديَّ: كيف دخلت؟ فدُهش الأخير لأن خلع الباب كان مدوياً، واكتفى بأن أشار للباب، فقال له حج كروم: لماذا تأخذ جرة الغاز أنا أحتاجها؟ فردّ الجندي بهدوء: وأنا أحتاجها. ثم أخذها ومضى! إحدى الحكايات الممتعة حوله في بداية الأحداث، قبل أن يُهَجّر الناس بشكل جماعي، سمعه الجيران في عز القصف وقذائف الدبابات تنهمر بغزارة، وهو يصرخ متذمراً: «صرعنا أبو الب. ك. س!»، لكنّ أجمل القصص عندما سمعه الجيران يتحدث مع صهره المسن أيضاً، ذي السمع الخفيف أيضاً، عن الثياب الداخلية لعارضات الأزياء، في حين كان السكون يخيّم على المنطقة من شدة الخوف. حج كرّوم لم يدر بكل ما يحصل، لكن

منزله يحوي ثلاث فتحات كبيرة في الجدران التي تطل على جيرانه، فقد قام الجنود بفتح الحيطان بين البيوت، على طول الحارة، ضمن حربهم، واكتفوا باعتباره شيئاً زائداً في البيت، إحدى المزحات التي تروى عن ذلك تعليقه الشهير: «يلعن أبو هالجيش، كسروا الحايط عالهسّ!»، حج كرّوم نفسه الذي قضى أسبوعين يوقد ما تبقى من الزيت ليضيء ليلاً جحيمياً، لم أعلم ما حلَّ بأسرته، لمَ بقي وحده، وأرجح قصة رفضه مغادرة بيته، رغم المجازر التي وقعت بقربه، منها إعدام عشرين شخصاً من بينهم نساء، في بيت يبعد عنه أقل من خمسين متراً، وتركت الجثث فترة طويلة حتى أن خفة سمع حج كرّوم لم تفلح في التخفيف من رائحة الجثث.

ـ 155 ـ

إحدى القصص الطريفة حصلت مع أحد أقاربي، عندما عاد إلى بيته في الرشدية، فوجده محتلاً من قبل الجيش، ووجد ثماني حقائب كبيرة في البيت، من الواضح أنها تحوي مسروقات مهمة من البيوت المجاورة، وعندما سأل عنها قالوا له إنها لا تحوي أياً من أغراض بيته، وعلى اعتبار أنه كان قد تمكن من أخذ إذن العقيد بواسطةٍ ما لأخذ قسم من أغراض منزله، تركه الجنود، وفي لحظة كان فيها وحده فتح الحقائب ووجد بعض أغراضه الثمينة فيها، فسرقها من سارقيه، والمضحك أنه بعد فترة اكتشف أن المكرويف الذي أخذه ضمن أغراضه لم يكن له رغم الشبه الكبير بينه وبين مكرويفه، والسبب أنه ماركته سامسونغ في حين أن مكرويفه الأصلي كان من ماركة وتار.

ـ 156 ـ

في الظروف الهمجية تعيد الحياة ترميم نفسها بوسائل شديدة

الغرابة، وتنشأ مهن جديدة وعلاقات فاسدة جديدة، لنا أن نسميها بفساد الحصار، أغربها قيام شخص ما بجلب أغراض للناس من بيوتهم في الأحياء المحاصرة والواقعة تحت القصف الشديد كالجبيلة والحميدية والشيخ ياسين والموظفين، وذلك مقابل مبلغ كبير نسبياً، تبدأ الرحلة ليلاً من حاجزٍ أمني شديد يمنع دخول الناس مهما كان السبب، ولكنه يسمح لهذا الشخص بالدخول بأريحية مقابل رشوة لا أعلم مقدارها، ثم يمضي إلى منطقة الحويقة، ثم يعبر جسر الدرة إلى منطقة العرضي باتجاه الساحة، وهذه المناطق تحت سيطرة الجيش الحر، الذي لا يعارض هذه المهمة، واللافت أنه يحمل الأغراض على دراجة هوائية أو عربة بناء بثلاث عجلات، ثم يعود إلى الحويقة، وينام الليل هناك، ويتحرك في ليل اليوم التالي ليعود. بشكل عام تكلفة النقل تتعلق بالمادة وبصعوبة نقلها والأهم بثمنها.

ـ 157 ـ

المدينة الآن مقسمة بين مناطق تحت سيطرة الثوار، وأخرى تحت سيطرة الجيش النظامي، والغريب أن الأخيرة مقسمة إلى قطاعات، كل قطاع منها تحت سيطرة ضابط واحد، ولا يوجد تنسيق فعلي بين القطاعات، بين القناصة والدبابات والجنود المشاة، والأهم بين الضباط أنفسهم، وقد باءت كل محاولات اقتحام الجبيلة بالفشل، حتى أن إحدى مرات التقدم لجيش النظام، التي وصل فيها إلى فرن حوكان، تبيّن أنها كمين من الجيش الحر وقتل فيها نحو 120 جندياً، لم يتمكن الجيش من سحبهم، فاستبدل ذلك كما أخبرني عدة أشخاص بإجبار كل مدني يريد أخذ بعض الأغراض من بيته في الجبيلة بالعودة وهو يجر إحدى الجثث معه.

ـ 158 ـ

أسوأ ما يمكن أن يحدث عندما يحاول أحدهم أن يستعبدك أو أن يسيطر عليك أن تبدأ في التفكير مثله لتلافي الوقوع في أفخاخه، أن يتسرب إلى عالمك الداخلي، فتتحول نفسُك إلى ساحة معركة بينك وبينه، ولكنك ببساطة تتلبس خصمك نفسه، فتكون مخبراً على نفسك، رقيباً حاد المزاج، مريضاً مهووساً بالتسلط، وتكون الفريسة، فريسة خوفك أولاً دون أن تدري. وبسبب التكرار تبدأ دفاعاتك بالتآكل، أو بشكلٍ أدق تبدأ بالتآلف مع الخوف باعتباره مجالاً حيوياً لحواسك، التآلف مع الهزيمة الدائمة بسبب فارق القوة، وتبدأ في اكتساب منعكسات شرطية جديدة، رهاب هلامي قابل للتحول وإعادة الصياغة لكن في حقل الاستسلام ذاته، في معركة لم تجر إلا في داخلك. كنتُ دائماً أتخيَّل المشهد كبقعة كحلي تغتصب البياض، والأخطر أن المعارك الوهمية في داخلك تخلق حقائق غريبة، عالماً موازياً للواقع، واقعاً آخر داخلياً، مما يجعل خطر عدم التمييز بين الواقع والحقيقة وارداً، أن يتحول رهابك وما يمليه من اشتراطات إلى حقيقة أخرى، خارجية عنك إلى حدٍّ ما، «أن تكذب حتى تفقد القدرة على تذكر الحقيقة». وتتفاقم الأمور سوءاً عندما تجد من يشبهك في رهابه، فتتمازج تصوراتكما، وتختلط الحقائق ببعضها، فيغدو العالم مسخاً حقيقياً غير قابل للشفاء، هذا ما كانت عليه سورية قبل الانتفاضة، ولا أقدر أن أدعي أنها أفضل الآن.

ـ 159 ـ

شهيد اليوم هو شخص أود ألا اذكر اسمه، إنه تناقض مخيف بالنسبة لي، فطوال عقود كان عميلاً للنظام، وعضوَ قيادة فرع سابق في حزب البعث، ومسؤول الفصائل المسلحة للحزب في أحداث الثمانين، وبقي

وفياً للنظام حتى فترة قريبة، وتعرض مثل سواه لإذلال عناصر الجيش وسُرق بيته وأمواله، ثم اعتقل على يد الجيش والمخابرات، ولاحقاً أُعلن نبأ استشهاده، وبدأ التغني به شهيداً! حقيقةً، أنا عاجز عن التعاطف معه، لا أعلم سبب اعتقاله، ولكنه ليس ناجماً عن صحوة ضمير غالباً، بل عن خطأ بسبب سوء التنسيق والفوضى الكبيرة في كل شيء، لا أعرف كيف يمكن أن يتحول أمثاله إلى أبطال، بالمناسبة هو قاص مفرط الرداءة وعضو في اتحاد الكتاب العرب، وعميل للنظام داخل الاتحاد أيضاً، هل سيخرج علينا من يود أن يسمي مركزاً أو شارعاً باسمه بعد أن تنتهي هذه الانتفاضة؟ لاحقاً علمت أنه وجد منتفخاً ببيجامته التي اعتقل بها مع ثلاث جثث لسجناء آخرين وأربع جثث لجنود من الجيش النظامي، على الأغلب أنه تم تفجير سيارة أثناء نقل السجناء، بكل الأحوال قد يكون استشهد دون أن يعلم.

ـ 160 ـ

أطرف تعليق سمعته عن وجهة نظر الأغلبية الصامتة كان بتقديم وجهة نظرهم كالآتي: «أنا ماني مع هدول ولا مع هدول، بس مع هدول أكتر بشوي من هدول!»، وبالطبع لا أحد يعرف من هم «هدول».

ـ 161 ـ

تحاصرني فكرة تأمل الوجوه دون صوت، خاصة في البرامج السياسية، أكتم صوت التلفاز وأراقب الوجوه بتعابيرها المتشنجة وانتفاخ أطراف الأنوف وكأن المتكلم يزأر، كنت سابقاً أراقب المغنيات «الصامتات» بمتعة، مبالغاتهن تأخذ شكلاً فكاهياً ممتعاً، ولو فكرنا بالراقصين حولهن، يتحول

الأمر إلى خشبة مسرح خبيثة، الأمر انتقل الآن إلى جثث لا يغيّر الصمت من ثقل منظرها على الروح، ووجوه غاضبة ترغب في الشتم والضرب، ما يصل من صورتها الصامتة هو هذا الشتم والضرب الذي تمتنع عن النطق به بسبب الضرورات الإعلامية.

ـ 162 ـ

من الأشياء التي تزعجني فعلاً هو عدم تقبلي لأي حوار حول الموضوعات التي أكتب عنها في هذا الكتاب، الأمر ليس اعتباري لهذا الحوار بمثابة «نق» سياسي أو تباكٍ ممجوج، بل لأنه ببساطة يزيد عجزي عجزاً، ومهما كان التحليل عميقاً فهو تحليل العاجز والمهزوم، إنه تأمل في وجه الميت بانتظار شيءٍ ما عصيٍّ على التوقع، في حين أن الكتابة تحفظ الحد الأدنى من الكبرياء، خاصة أنها شخصية، والأهم صامتة، وتملك خيار التعديل أو عدم النشر، إنها خطاب مع الآخر من طرفٍ واحد، الآخر الذي هو أنت نفسك، حوارٌ لا يفاقم العجز دائماً، ومن باب الأمانة تمر بي أيام لا أقدر أن أكتب فيها بسبب كآبتي المستفحلة.

ـ 163 ـ

من أكثر الأشياء التي تثير فضولي تلك المتعة الغريبة في الحقد، عندما يسترسل المتكلم «الحاقد» أمام مستمعيه في شرح تفاصيل حقده مستعيناً بمخيلة تستخدم صوراً تقليدية غالباً ذات استخدام وتلقٍّ نمطيين (تمزيق الآخر بالأسنان مثلاً)، مع ارتفاع حدة الصوت ولمعان غريب في العينين، وتلويح مبالغ فيه باليدين، إنه نوعٌ من الشهوة يسيطر على الحاقد، انفعال مشبوب ضمن أداءٍ مسرحي. وأنا أتحدث هنا عن الحقد بصفته طقساً جماعياً لا شعوراً فردياً مخفياً، وفي الوضع السوري يأخذ

الحقد كل مبرراته مما يريح الحاقد من وطأة ظهوره بمظهر المريض، إنه حاقد بين أناسٍ يفترض أنهم حاقدون أيضاً، إذاً الأمر يحمل نوعاً من استعراض عاهاتنا فيما بيننا، من يحمل حدبة أكبر في ظهره، الكل يجتمع على المائدة ويكشف عن كتفه المتورمة من شدة الحقد، ولا توجد إدانة لهذا الحقد التجريدي، بل نوع من التعاطف الذي يقارب الافتتان أحياناً، وتَكاثر المآسي كالذباب وتلك الدمعة اللعينة المستعدة للانسياب يجعلان الحقد أشد جمالاً، يحولانه إلى ولعٍ، إنه التعبير الأكثر «نبلاً» عن العجز أمام وحشية ساحقة، تعبيرٌ يُظهر صاحبَه بمظهر القادر على الانتقام، والمنتصر في ساحة المتخيَّل، الحقد هنا وسيلة للتصعيد، تصعيد جماعي بين الجالسين، إذ إن المتكلم يتكلم باسمهم ضمناً وحقده يشمل جزءاً من حقدهم، هذه الملاحظة شديدة التكرار في الحوارات الضيقة، مع عدد محدود من الناس بحكم ظروف الحصار، ولكنها شديدة العمق.

بالتأكيد الطرف الآخر ينمي حقده أيضاً وفي السياق الغرائبي نفسه، مستمداً من قتلاه رموزاً نقية تبرر الحقد، وتشرعن كل الممارسات التي تأتي في سياق تطبيقه. هل يقدر أحد أن يقول لأمٍّ قُتِل ابنُها (عندما كان يَقْنِص أناساً أبرياء) إنه مجرم؟ لا أفترض أن ذلك سهل أو متاح، والحقد يمسي «واجباً» في مثل هذه الحالة، فهو تعاطف مع امرأة ثكلى، إنه يحمل قيمةً إيجابية إذاً، بل قد يتحول إلى نوعٍ من المجاملة الاجتماعية، وأحياناً ضرورة كي لا يُنبذ المرء من وسط الحاقدين. وسورية تكاد تكون بلداً للحاقدين، وهذا لا ينفي عنهم إنسانيتهم أو طيبتهم، لأن هذا الحقد يقبع أحياناً في حقل المتخيَّل، لأنه مبني على التعاطف الجماعي أكثر من الرغبة في الفعل أو القتل بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكن هل هذا يقلل من خطورته؟ لا، لأنه لا يدفع صاحبه إلى القتل بل يكتفي بتبرير القتل، قتل الآخرين للعدو دون تمييز، إنه غياب دور المجتمع الكابح للعنف.

ـ 164 ـ

من الأشياء التي تزعجني وأنا أراجع مقاطع من هذا العمل غياب المفاجأة، وكأن الفكرة تسير نحو نهايات متوقعة ككلب أليف جميل يتقن لعبته، أفكر في كتابة مصائر أخرى للفكرة، ولكن طابع الصدق في العمل يخلق عبئاً عليّ ككاتب، هل ألجأ إلى اللعب على الفكرة واللغة؟ الأمر مغرٍ، إنه كممازحة الذات، استفزازها، واختبار يقينياتها الهشة، لا أعرف لماذا أفضّل أن أحافظ على صدق العمل، فبما أن هويته غير محددة، يغدو الصدق عنصراً هاماً في التعامل معه.

ـ 165 ـ

عندما كنت طالباً في المدرسة كانت فكرة اللانهاية أثناء دراسة الرياضيات مغويةً، ليست بصفتها مكاناً موغلاً في البعد، فراغاً لا قرار له مقفراً فاقداً لأشكال الحياة، بل في وجوده كعدد لا نهائي من المسافات بين رقمين أو حدثين، باعتبار أن اللانهاية مشكّلة من مسافات بالغة الصغر بين مُحَدَّدَيْن، تكاد أن تقترب من الغياب، تلامسه، ولكنها لا تلتقي وبالتالي لا تفقد وجودها، أرضٌ شاسعة مجهرية تتحرك بينها التفاصيل، والأخطر أن أي نقطتين متقاربتين تحملان بينهما عدداً جديداً غير منتهٍ من المسافات، إنها أشبه بالنسيان، نسيان متخم بالتفاصيل، وليس نسياناً فارغاً، نسياناً قابلاً للعكس على خلاف الغياب، إنها التفاصيل التي نعجز عن الاحتفاظ بها لدقتها، إنها الحياة باعتبارها أرضاً للنسيان، والقابلة للتذكر فيما لو وجد من يقدر على التأمل. واللافت في الفكرة أنها، وبالرغم من كل تفاصيلها، لا تفقد بساطتها وعفويتها، أو بشكلٍ أدق طبيعيتها. إنها كالبحث عن الجمال في منظر قبيح، أو في أشياء مشوهة تنتظم بخصوصية تعطيها جمالاً، كالمرضى في المشافي مثلاً، أتخيّلها كعدد لا نهائي من الصور

الفوتوغرافية بين لحظتين، وكل صورة تملك هويتها وسماتها الخاصة، أفكر في ذلك وأنا أتأمل سيل الصور المرعبة المتعلقة بالانتفاضة السورية، سيل النسيان فيها، كلها مهمة ولكن أذهاننا البشرية لا تقدر على تلقيها، على تلقي كل هذا الألم، والأهم أنها لا تريد ذلك، إنها تفضل النسيان، ماء تسبح فيه التفاصيل نحو العمق، تغرق فيه كما نغرق في الحياة، الحياة كفعلٍ معاش، لا كفعلٍ مُتخَيَّل أو مرسوم فوق الحياة نفسها، أتخيَّل كم من الممكن أن نكتب عن العالم الداخلي والذكريات السابحة في اللاوعي بين لحظتي مسك الفنجان ولحظة البدء برشف ما فيه، هذا المسير القصير المفرط في تكراره وعاديته. لعل الطريف في الأمر أن هذه الفكرة تأتي من شخص يتعامل مع الحياة الاجتماعية بالحد الأدنى، مع الحصار أو دونه. كثيراً ما كنت أفكر في ذلك وأنا أكتب بعض نصوص العبث، كنت أظن أنه أسلوب تعبير مناسب في المراحل المجتمعية المضطربة، مراحل نكاد نفقد فيها الثقة بكل شيء، بالأفكار الكبيرة والأحلام الجماعية الساحرة، نكاد نفقد فيها الأمل، ذلك يحمل جانباً من الصحة ولكنه لا يفسر كتابة بنتر أو جان جينيه، العبث هنا خيار وليس انعكاساً، إنه فن يركز على التفاصيل، لكن بطريقته، إنه طريقة معكوسة عن الفن التشكيلي الكلاسيكي، إنه لا «يساوي بين عين المرأة وحذائها» بشكلٍ تقليدي، إنه قد يغلّب أياً منهما في أي لحظة، وبهذا المعنى إنه يساوي بينهما، إنه فن يقوم على التفاصيل أيضاً، لكن العبث يحتفي بها، ينقلها نحو مركز الصورة، وليس العكس.

ـ 166 ـ

إحدى الألعاب الممتعة التي أمارسها هي مشاهدة فيلم ما من منتصفه أو بعد تفويت المقدمات التي توضح خلفيات الشخصيات، أن أبدأ المشاهدة من عبارة «لن ينجو» أو «هل أكله»، أو من مشهد يأخذ فيه البطل

قراراً مصيرياً في قضية ما أجهلها، أحس بمتعة مضاعفة في هذا اللبس، كموناً مغرياً في تطور الأحداث، والذي قد يأتي أقل بكثير من التوقعات أو الاحتمالات الأخرى التي تدافعت في ذهني، بالتأكيد هذا لا ينجح في كل الحالات وهو ليس سلوكاً مقصوداً أصلاً، إذ إنه يأتي بحكم كثرة القنوات وكثرة الأفلام المملة وقلة اهتمامي بالمتابعة، وبالتالي أي شيء جيد لإلهاء الذهن عن هواجسه، حتى أني أحياناً أتوقف عن متابعة الفيلم، مع لعبة جديدة لإكمال السيناريو على عجل، عليّ أن أعترف أن هذه العادة قديمة قبل الحصار، لكن حضورها بات أكثف تحت وطأته، حتى أني أحياناً أمزج بين فيلمين باستهتار غير مبرر، مكتفياً بسذاجة مقارنة جمال فخذي البطلتين، مزاوجاً السيناريو بين الفيلمين ومستعداً لتخريبهما معاً، الأمر طفولي بالتأكيد، ولكنه يحمل متعةً غير مؤذية.

ـ 167 ـ

هناك تغيُّر في بنية الخطاب العام للناس في المدينة، الكثر يحسون بنوع شديد من القرف والإحباط، والأهم أنهم يائسون من المرحلة القادمة سواء بقي النظام أم زال، ما جرى أن أخطاء الجيش الحر بدأت تتضخم وتبدو أشد وطأة على الناس، حتى أن العديد لم يعودوا متعاطفين معه رغم حقدهم الشديد على النظام، آخر هذه الأخطاء الشنيعة أزمة الخبز في دير الزور، حيث يوجد فرن وحيد في المناطق التي يسيطر عليها النظام ويستأثر الجيش بكل ما يخبزه الفرن تقريباً، مدعماً بسيل متكرر من إطلاق النار لفض جموع المنتظرين أمام الفرن (مع العلم أنه فرن خاص وليس تابعاً للدولة)، ويتبقى النذر اليسير يتصارع عليه الأهالي الذين يبدؤون بالاصطفاف ساعات طويلة قبل أن يتاح لهم الخبز بكميات قليلة. أخيراً قام عناصر جبهة النصرة بسرقة الطحين القادم إلى المدينة بحجة

أنه ذاهب إلى الجيش وليس إلى السكان، وبهذا بات النذر اليسير الذي يعيش عليه الناس غير متاح، ووصل سعر الربطة إلى 250 ليرة سورية إن وجد الخبز (مع العلم أن السعر الرسمي 15 ليرة فقط)، ومن سرقوا الطحين لم يقوموا بتوزيعه على الأهالي، لأن هذه المناطق تحت سيطرة الجيش النظامي كما قلنا. وكي تكتمل الكارثة تقوم حواجز النظام على طرق السفر بمنع دخول أي خبز مع المسافرين، هنا لم يعد يوجد من يمثل الناس، الكل فقد شرعيته، والحاضنة الاجتماعية الشرسة للجيش الحر بدأت بالتفكك، فقد كان أفراد من الجيش الحر يجوبون شوارع المدينة تحت الحصار ليعطوا الناس خبزاً وخضاراً، ومنهم من استشهد تحت القصف. أما الآن فهو يكمّل حصار النظام من خارج المدينة، ويكتفي بتوزيع الطحين على مناطقه خارج المدينة أيضاً. ولا بدَّ من ذكر حادثة أخرى موثّقة قرب تل أبيض في شمال الرقة، قام فيها عناصر الجيش النظامي بمصادرة شاحنة طحين وأخذ الأكياس وتحويلها إلى متاريس! من الأحداث الأخرى وهي مؤكدة رشوة شركات النفط للجيش الحر في حقل التيم بمبلغ شهري بحدود الأربعين مليون ليرة سورية كي لا يهاجمها الجيش الحر، والمزعج أنه بجانب حواجز الجيش الحر هناك من يبيع ليتر البنزين بغلاء شديد دون أن يتدخل أفراد الجيش الحر لضبط الأسعار. بالتأكيد ليس كل من يقاتل واعياً، وهناك الكثيرون ممن كان تاريخهم أسود قبل انضمامهم للجيش الحر وهؤلاء لم يتحولوا إلى ملائكة، والخطر الأكبر يتمثل في غياب أي رقابة على المقاتلين وعدم وجود سلطة سياسية شفافة تسيّر أعمالهم فتُترك الأمور عشوائيةً. المعارضة باتت وجهاً قبيحاً يشبه وجه النظام، يختزل ذلك أحد الناس الذين يعادون النظام بأن بقاء النظام كارثة وزواله كارثة أكبر! من الأحداث المرعبة صراع بين قريتين متجاورتين على الخط الغربي لمدينة دير الزور (باتجاه الرقة) وهما التبني والطريف، استخدم فيها المتقاتلون بسبب قصة ثأر أسلحة عنيفة

منها الآربيجيات والرشاشات وهي من أسلحة الجيش الحر، وتم حرق عدة بيوت مع سقوط عدد من القتلى، والمضحك أن المعركة بين المتقاتلين اضطرت إلى الانتهاء عندما انتهز النظام فكرة تجمع أفراد الجيش الحر في نقطة مكشوفة، فقامت إحدى الطائرات بقصفهم وقتلت ستة أشخاص باتوا شهداء، الفكرة المخيفة هي في وجود السلاح بين أيدي الجميع، وفي اليقين في الصعوبة البالغة لسحبه بعد انتهاء الانتفاضة. في هذه الأيام يغدو النظام بكل همجيته الكيان الوحيد الذي يمتلك بقايا أشلاء مؤسسات الدولة، إنه يعطي الرواتب للموظفين رغم انقطاعهم عن وظائفهم، وهو من يؤمّن بعض المستوصفات وحملات اللقاح للأطفال، وفي المقابل يقوم بقهر الناس وإذلالهم دون تنسيق بين مؤسساته القمعية، حتى أن بعض جنود النظام يموتون بسبب أخطاء في القصف من قبل النظام نفسه (سبق أن أخبرني طبيب مَخْبَر وهو منبوذ عادة بين الأطباء لأنه مؤيد، ويكنّ لي مودة لأني أتقبل رأيه وأتعامل معه ضمن حدود اللياقة، أخبرني بأن تجهيزات المخبر الوحيدة المتاحة في المدينة والموضوعة في مستوصف للدولة قام الجيش النظامي بتكسيرها، قال لي ذلك بحقدٍ شديد وهو يعمل متطوعاً كطبيب عام في مستوصف حكومي)، هناك عشرات الحوادث الموزعة على مساحة جغرافية واسعة عصية عن التجميع والفهم، إنها دوامة يسير فيها الناس دائخين وفاقدين للتوجه أو الأمل.

ـ 168 ـ

في لحظات الخطر الشديد يتمنى المرء استراحةً قصيرة يخرج فيها عن جسده، يتأمل ما يجري، يبحث عن مهرب ما، فكرة الفاصل هذه تتكرر عند الجميع وأهميتها لا تكمن في إمكانية النجاة، بقدر أن يتحول هذا الخطر إلى خطر غير جدي أو أشبه بالمزاح، إيهامٌ للنفس بأن ما

يجري مجرد حلم قابل للإيقاف، ذلك أن التأمل هنا نوع من نقل التركيز من الموت إلى تفاصيل أخرى صغيرة وقابلة للتغيير، كنت أفكر في ذلك كثيراً وأنا أخيط جروح الأطفال، والخوف يستنفد الطفل من إبرة التخدير الموضعي وإبرة الخياطة، غالباً ما يستغيث الطفل مكرراً: «بس شوي»، إنه يطلب استراحة دون معنى، فهو يعلم حقيقةً أنه لن يُترك حتى تتم خياطة الجرح، وبالتأكيد هو غير متألم وأبوه أو أمه يمسكانه، أي أنه يعلم أننا نقوم بشيء جيد لصالحه، كثيراً ما كنت أسأل ماذا يمكن له أن يفعل بهذه الاستراحة؟ إنه يطلب أن يكون الأمر أقل جدية، وبالتالي هدنة مع توتره، وبالتالي هو لا يفكر فيم سيقوم به في هذه الاستراحة، فتفكيره محصور في الحصول عليها فقط.

ـ 169 ـ

منذ فترة شاهدت فيديو على قناة دير الزور المعارضة تظهر فيه إحدى الممرضات وهي تحمل في يدها بندقية روسية، وتهدد بشار الأسد وتغدق عليه بشتى السباب، علاقتي طيبة مع الممرضة وهي كانت من أكثر المتحمسين في بداية المظاهرات السلمية، وعندما أُجبر الناس على تسوية أوضاعهم مع فروع الأمن بعد الاجتياح الأول لمدينة دير الزور في آب 2011، اضطرت الممرضة كمعظم الأطباء إلى الذهاب بقصد إزالة أسمائهم من قوائم الاعتقال على الحواجز. المحزن في الأمر أن الممرضة اتُهمت وقتذاك بالعمالة لفروع المخابرات وأمست شجاعتها اللافتة دليلاً على إدانتها. لم يُفتح الموضوع بيننا لأني أحرص على عدم الدخول في مثل هذه التفاصيل، فهي بالنسبة لي غير مدانة ومن المعيب وضعها في موقع الدفاع عن النفس مع عدم وجود أي دليل ضدها، وبقيت علاقتي معها محافظة على الود والاحترام. في هذا الحصار رأيتها في مشفى النور،

عندما كنت أجري إحدى العمليات، كانت مريضة بشدة، وعرفت أنها بقيت مداومة في المشافي التي تسعف الجرحى، وكل ما فكرت فيه وأنا أرى الفيديو، حجمَ ألمها من تهمة عمالتها مع الأمن، لم أستطع أن أسمع كلامها إلا كصراخ ببراءتها من العمالة، إنها تقطع أي خط رجعة مع النظام، وتعلم تماماً كما نعلم أنها ستقتل إن وقعت في يد الجيش النظامي، تصرفها أرعن بالتأكيد، لأن وصف بشار الأسد بالكلب والحقير لا يقدم شيئاً للانتفاضة، إنها ببساطة ضحية أخرى، أعتقد أنها كانت تفكر في وجوه متهميها وهي تسجل هذا الفيديو وليس في بشار الأسد، تتخيَّل خدودهم المطعوجة من أثر الصفعة، وعلامات الخجل الشديد بادية، تتخيَّل دمها إن قُتلت وهو يطرش وجوههم، ويعمي عيونهم التي ستعجز عن الاتهام لاحقاً، سلوكها سلوك انتحار مؤجل يزرع الإحساس بالذنب لدى متهميها، ويسبغ عليها هالة القدسية لدى من دافع عنها، لا أقدر أن أنظر إليها إلا كضحية، ضحية اتفق النظام والمعارضة على قتلها، والمفجع أنها وافقت على قتلها لتؤكد موقعها كضحية وموقعهم كمجرمين.

ـ 170 ـ

كنت أفكر في النظرات الباسمة بين متحاورَيْن، والتي تشبه تآمراً ضمنياً ضد شخصٍ ثالث يقدم رأياً ينزاح عن الرأي العام، هذه النظرات بما تحمله من إدانة صامتة وتحقير للآخر قد تكون أخطر من الصراخ في وجهه بمواجهة فردية صادقة، إنها علامة على أخوة مشتركة بين الحلفاء ضد الساذج (في أحسن الأحوال) الذي يتكلم، نوع من التضامن والسرية بين أعضاء فرقة واحدة تمارس القتل في الذهن، ويتواصل أعضاؤها فيما بينهم بصمت وحرفية، والمراقب الخارجي يرى حالة محترمة من الإصغاء وتقبل الرأي الآخر، حالة من الحوار، لكنه لا يعلم بأمر الضحية التي تجهل

أنها ضحية أحياناً، والمضحك أنها قد تمارس السلوك نفسه في مكانٍ آخر يوجد لها فيه حلفاء مبتسمون.

ـ 171 ـ

إطلاق النار برتابة ضمن اشتباك يثير الفضول، سبق أن كتبت في مقطع سابق عن موسيقا النار إن صح التعبير، وعن دور الآربيجيات كإيقاعيات ودور القذائف كباص، كان ذلك من وجهة نظري كمتلقٍّ، أما من وجهة نظر جندي الجيش أو عنصر الأمن، فالأمر مختلف، من الصعب أن يحس بطرب إيقاعي يندمج فيه مع طلقاته المتكررة كعواءٍ، أعتقد أنها محاولة لجعل الأمر مكروراً، فالتكرار يوحي بالرتابة والثقة، إنه يهدئ من روعه وكأنه يقول لنفسه: ألم أقل لك؟! الأمر بسيط كهذه الرشقة، ويمسي ارتداد الكتف نوعاً من الهدهدة، تربيت على كتف الخائف لطمأنته من أنه سينجو هذه المرة أيضاً. لا أعرف لم يراودني شعور بأنه يطلق النار دون تصويب حقيقي، إنه يصرخ على الذئاب في الظلام ليثير خوفها، أو ليعديها بخوفه، وهذا يفسر قلة عدد القتلى في الاشتباكات الليلية مقارنة بهول إطلاق النار.

ـ 172 ـ

عليّ أن أعترف أني أحس بنوعٍ من الإغراء في اعتبار نفسي خارج ما يجري في سورية، أن أحس أني لست مطالباً بإيجاد تفسير لما يجري أو التحرر من واجب تحليل وتبرير الأشياء المتناقضة، والتي تأتي في سياق حدية شنيعة في المواقف ووجهات النظر، والذي يحملنا إلى حدٍّ ما وزر أخطاء الجانب الذي ندعمه. أرغب في أخذ إجازة ذهنية، ولعل هذا ما

يشجعني على السفر خارج سورية، هدنة مع هذا الوضع الجنوني، إنه نفسه الإغراء الذي ينتاب المقاتل في معركة، أو تلك الرغبة اللعينة والمألوفة التي تنتابنا بالسقوط حين نطل على حافة سطحٍ عالٍ حين يبدأ القلب بالخفقان والنزول، غواية مرعبة تعمي الحواس وتركز الفكر في مسافة السقوط فقط، في الأذرع المتحركة كعلم يهوي مع وجهٍ حيادي، متأمل وهادئ، في الاسترخاء اللذيذ المرافق للسقوط، في التخلص من عبء الفعل، فالسقوط حالة من الاستسلام المبرر، (أعلم أني هنا أسير في الدرب النقيض للسقوط في الهاوية وما يحمله من دوار وقلق عند كريكجارد، ومع ذلك أنا لا أختلف معه كثيراً لأن العلة تظل في النظر وليس في الهاوية، «وإلا فلم ينظر في الهاوية؟») سقوط عميق يتمنى المرء أن ينتهي بالاستيقاظ من منام يمكن أن يسميه كابوساً ممتعاً.

ـ 173 ـ

جنود الجيش النظامي يقومون هذه الأيام باصطياد السمك في منطقة الكسر (حيث يتفرع نهر الفرات إلى فرعين) وذلك باستخدام القنابل اليدوية، وهذه طريقة حقيرة جديدة تضاف إلى الديناميت والكهرباء، مع العلم أن منطقة الكسر محمية طبيعية يمنع الصيد فيها أغلب أوقات السنة، وعلى اعتبار أن القنبلة اليدوية تقتل كل أشكال الحياة في النهر يصبح هذا التفصيل مكملاً للوحة الدمار التي يرسمها الجيش بالقذائف (على اعتبار أن هناك رسماً بالسكين) في المدينة.

ـ 174 ـ

منام اليوم غريب، كنت في مكان مظلم تماماً ومطالبٌ بأن أتبول في وعاء لا أعرف حجمه ولكنه صغير غالباً، الأمر ليس مزحة ولا أذكر كيف

بدأ، ولكني كنت قلقاً بشدة إن أخطأت، وكأن حياتي تتوقف على ذلك، وأكثر ما كان يزعجني هو عدم رؤيتي لأي شيء وعدم السماح لي بالحركة رغم أني لا أتذكر وجود أي شخص ما خاطبني، ودليلي الوحيد على نجاحي أو فشلي هو الصوت، صوت ملء وعاءٍ ما ضيّق، أو صوت ارتطام البول بالأرض (التي تبدو ملساء)، مع مراعاة قوة التدفق لأن مثانتي تكاد تنفجر، وبالتالي سيكون الدفق شديداً في البداية، ثم يبدأ بالتخافت بسرعة مما يضطرني إلى أن أقترب من الوعاء تدريجياً، ولكن قدميّ لا تتحركان، لذلك كان الحل في إمالة جسدي بطريقة مضحكة كقوس مقطوع الوتر، وبالطبع لم أتخلَّ عن عادة قديمة لدي في عدّ الثواني التي أتبول فيها، لكن بتوترٍ شديد، باذلاً كل جهدي في ضبط الدفة، أعتقد أني أصبت الوعاء بقدر معقول، ولكن البول استمر فترة طويلة مما أقلقني خشية امتلاء الوعاء، لا أعرف لم كنت خائفاً من تلويث الأرض، رغم أن ذلك حتمي في مثل هذا الظرف، لا أعرف أين كنت وما هي صفتي، بكل الأحوال أفقت من منامي وذهبت إلى التبول الحقيقي الذي لم يدم طويلاً.

ـ 175 ـ

أحياناً تتحول محاكمة الأمور إلى فعلٍ عبثي، إذ تكون محكومة بنهاياتها أكثر من المعطيات والتحليل الذي يؤدي إلى أخذ خيار فيها، فلو كانت نتيجة خيارٍ ما إيجابية لكان الخيار حكيماً، ولو فشل لكان خاطئاً، هكذا ببساطة تكون النتائج فيها الدليل الحاسم، ويكون الحكم معكوساً من النهاية نحو البداية، والأسوأ أن تتحول هذه الحوادث إلى أمثلة للبرهنة على جودة خيار ما آخر (قد يكون سيئاً بحق)، والعبارة المتوقع سماعها: «ألم أقل لك؟!» ضمن إعادة عبثية للنقاش الذي حسمت نتيجته، والسيئ أنه ليس متاحاً دائماً أن نعرف مصير الخيارات الأخرى، أو مصير الخيار نفسه في حال

تغيّرت الظروف. بالتأكيد هناك حد أدنى من المنطقية في مقاربة الأمور لكن ذلك يكون أكثر أهميةً في الحياة الطبيعية، لكن عندما تكون الحياة مفرطة العبثية يتحول الأمر إلى فوضى مجنونة غير قابلة للتصديق. هناك عشرات الأمثلة التي توضح ذلك، منها مغادرة المدينة أو البلد وترك البيت لينهب مثلاً، مع العلم أن مغادرة المدينة تحمل أحياناً خطراً في شوارع المدينة وطريق السفر قد يكون أكبر من خطر البقاء في البيت، أو استمرار المقاتلين بالقتال في المدينة أو الانسحاب منها لتجنيب أهلها جرائم الجيش، أو القرار بالتموين بكميات قابلة لأن تفسد عند انقطاع الكهرباء أو... واللافت أن الأمر قد يأتي معكوساً أحياناً، إذ يسعى المرء للبحث عن كل المبررات لصالح قراره الخاطئ أو قراره الذي لم تتبيّن نتيجته بعد، وذلك لا يعني إعادة النظر فيه، بل مجرد دفاعٍ أعمى عن خيار ليس من الضروري أن يكون سيئاً لو كانت الظروف مختلفة ولو قليلاً.

ـ176ـ

معظم مشاكلي وأنا صغير في المدرسة كانت تأتي من رفضي تلقي نصيبي من العقوبة الجماعية للصف، بضع عصي على اليدين عادة. الأمر بالنسبة لي كان قضية مبدأ، رفضي الحاسم والخائف في الوقت نفسه لتلقي الذل الجماعي، والأمر بالنسبة للمدرسين هو كسر القانون العام وكسر هيبتهم التي تفرضها العصا، والأمر بالنسبة لزملائي ينقسم في اتجاهين، الأول وهو الغالب حالة من الحقد، لأني برفضي أعلن أني لا أقبل أن أتساوى معهم في الذل، أو بشكلٍ آخر أجعل من نفسي شخصاً يملك كبرياءً يفتقدونها، خاصة أن أبي يقف في صفي ويدافع عني، وبالتالي أنا أمتلك نوعاً من الحماية غير متاحة بالنسبة لهم، إذاً أنا أفاقم عقوبتهم بجعلها أمراً يستحق الصراع، ويجب ألا ننسى أني الطالب الأكثر تفوقاً

في المدرسة، وبالتالي فكرة رؤيتي أتعاقب معهم تمنحهم مساواة مريحة، إذ إن التفوق لا يحمي أحداً. القسم القليل المتبقي يشعر بسعادة رفض أحد الطلاب، وذلك ليس تعاطفاً معي بل شماتة بالمدرّس الذي يقف أمام صدام لا يوقن أنه سينتصر فيه، لأنه أيضاً يفكر في أبي المشهور بدفاعه عن أبنائه. عليّ أن أعترف أني غالباً ما خرجت من الصراع خاسراً بشكلٍ معنوي رغم أني كثيراً ما كنت أنجح ظاهرياً في معركتي. أتذكر ذلك لأن الأمور في عالم البالغين لا تختلف إلا في التفاصيل التي باتت أكثر تعقيداً وفي خسارتي الحماية التي كنت أمتلكها، وبقي تمايزي في معارك تُفرض عليّ من الخارج بكل ما يحمله من خسارات.

ـ 177 ـ

عندما رأيت بعض الحدائق في دمشق تذكرت أن مدى كانت تطلب الذهاب إلى الملاهي والحدائق في الرقة، لكنها (وهذا ما يقتلني) لا تطلب ذلك أبداً وهي في دير الزور.

ـ 178 ـ

يبدو أن الوسيلة الوحيدة لتقبل المأساة أحياناً تكمن في أن يتبلد شعور الناس، في أن يتحولوا إلى وحوش هم أيضاً دون أن يعلموا متى يمكن لهم أن يعودوا إلى إنسانيتهم، والأخطر أنهم غير متأكدين إن كانوا قادرين على ذلك! ويبرز سؤال آخر ما هو مصير جيل مراهق نشأ تحت وطأة المجازر، كَبُرَ تحت قصف المدافع في شاشات التلفاز على الأقل؟ كيف له أن يتخلص من جرعة العنف الساحقة في داخله والتي تبرر الثأر قبل كل شيء؟ جيل تربى على الانتقام قبل قصص الحب، جيلٌ تكلل بمأساة لا أعرف كيف له أن يخرج منها.

ـ 179 ـ

إحدى الحوادث المضحكة المبكية هي سماح الجيش لبعض الناس بالذهاب إلى منازلهم في الجبيلة، وذلك بعد تجميع هوياتهم الشخصية وفحصها لدى فرع الأمن العسكري (ما يسمى بضرب فيشة) واعتقال المطلوبين منهم، وإجبار البقية لاحقاً على الهتاف للجيش وهم يقفون قرب الجنود لتصويرهم من قبل التلفزيون السوري..

ـ 180 ـ

آخر قصة ألّفتها مدى جاءت كما يلي: «كان ياما كان في قديم زمان، كان في فيل، وفجأة جاء النمر، وجاء الذئب وأكل بيضات الأرنب»! وآخر لوحة خربشتها أسمتها «كوكو عصفور جداً»، لا أعرف السبب ولكني أجد إبداعها مناسباً لعبثية المرحلة.

ـ 181 ـ

سافرت إلى الرقة مع أبي بقصد متابعة بعض الأمور في الهجرة والجوازت هناك مع استكمال بعض الفحوص الطبية، وللمفارقة كنت الشخص الوحيد من بين المسافرين الذي تم تفتيشه في طريق الذهاب من قبل حواجز النظام، إذ كان وقت السفر باكراً ولم يستيقظ مقاتلو الجيش الحر لنصب حواجزهم البليغة أيضاً، وفي العودة كنت الوحيد الذي سأل عنه مقاتل الجيش الحر على الحاجز، فقد سألني بغباء مدهش: ما رتبة أبيك؟ فقلت له: طبيب، وكان أبي في المقعد المجاور لي، فلمعت عينا الثائر وكأنه التقط صيداً ما، وكرر: «طبيب»، فأجاب أبي إننا طبيبان، فسألني المقاتل: أين تقيم؟ فقلت له: في دير الزور، فألحّ في السؤال مجدداً على أمل أن أبدل

رأيي، وعندما يئس قال لي بعد فاصل قصير: لو كنت تقيم في الرقة لكنت أخذتك إلى مشفى ميداني. وتخيّلت نفسي مربوطاً بخيط يسوقني الثائر دون أن يكلف نفسه ربط جزرة إلى فوهة البندقية الروسية على كتفه، وسأل بعدي عن تأجيل الخدمة العسكرية الإلزامية لأحد الركاب مثل ما يفعل جنود النظام، دون أن أفهم سبب ذلك لدى الثائر الفذ، أو ما كان يمكن له أن يفعل في حال اكتشف أن هذا الشاب متخلف عن الجيش، ولا بدَّ من ذكر أنه وقبل مئات الأمتار من الحاجز كان أهل الشميطية قد ركنوا صهريج بنزين سرقوه وتهافتوا عليه كباراً وصغاراً لإفراغه، مع ضحكات تصل بين الأذنين، مع العلم أن مدينة دير الزور محرومة من البنزين والمازوت والغاز والماء والكهرباء والخبز لعدة أيام متواصلة. لم يعد هناك من يجرؤ على إيصال أي من المحروقات إلى المدينة لأنها ستُسرق، والمضحك أن بعض سكان الريف يقومون بتكرير النفط ضمن أراضٍ زراعية، وذلك بغليه وإعادة تقطيره بطرق بدائية تعتمد على الشم للتمييز بين أنواع المشتقات النفطية، مع العلم أن النفط المسروق من خطوط النقل ليس نقياً فقد يكون مخلوطاً مع الماء أحياناً على شكل مستحلب، وهناك إشاعات عن وجود بعض المواد المشعة المرافقة للماء، وهذه الإشاعات تتوافق مع قصص حول التهابات جلدية لدى عدد من الذين يتعاملون مع هذه المواد، المهم أن الناس يبيعون ما يفترض أنه بنزين مشتق من عملية التكرير بأسعار خرافية رغم إيذائه الشديد لمحركات السيارات. وعلى بعد مسافة قريبة صعد ما يقرب من خمسة عشر شخصاً إلى الباص وقوفاً، لأنهم غادروا دير الزور من أجل شراء الخبز من قرية الشميطية، حيث يخبز هناك على التنور، مع العلم أن الطحين مسروق غالباً، وأخبرني أحد الركاب وهو والد طفل مريض عالجته سابقاً أنه سمع أحد الثوار يعلن أنه قد باع صهريج بنزين إلى منطقة الجزرة بأربعة ملايين ليرة سورية. هناك الكثير من التفاصيل المرعبة المشاهدة والتي لا أحب أن أخوض فيها، ولكن تعليق

أحدهم يختزل الأمر ببساطة: «ويلي من الذي يحررني (الجيش الحر) وويلي من الذي يحميني (النظام)!»، معلناً ببساطة أن الثورة فشلت، وأننا وصلنا إلى مرحلة قد يضطر الناس فيها إلى الانتقاء بين جلادَيْن، وأكثر ما أذهلني التفكك المتسارع والخطير للقاعدة الشعبية للجيش الحر في المدينة، وغياب الدولة في الرقة حيث بات من الخطر السير بعد السابعة مساءً، مع تزايد شديد لحالات الخطف وطلب الفدية، مع انقطاع تام أيضاً في المحروقات، وصعوبة في تأمين الخبز أساسها سيطرة مراهقين مسلحين بسكاكين على نوافذ المخابز لاحتكار شراء الخبز ثم احتكار بيعه بعد ذلك، كل ما سبق يقدم صورة عن سورية القادمة، التي رزحت تحت وطأة ديكتاتورية شنيعة، والتي تمضي نحو تخومٍ أشد هولاً، لن تكون مكللةً بالحرية.

ـ 182 ـ

أخطر ما سمعت في الفترة الماضية من مصدر موثوق ومسؤول هو أن سورية مقبلة على مجاعة بعد خمسة أشهر تقريباً، فمساحة الأراضي المزروعة تقل عن عشرين بالمئة من المساحة التي تزرع عادة، والسلطة لا تقدر على حماية مخازن الحبوب لديها، وبالتالي لن تستورد أي حبوب من الخارج، خاصة أنها لم تعد تملك ما يكفي من القطع الأجنبي، إذاً الكارثة قادمة لا محالة!

ـ 183 ـ

حسمت أمري تجاه السفر خارج سورية، سأسافر بعد أربعة أيام للعمل في مشفى بتمويل سعودي افتتح حديثاً في اليمن براتبٍ جيد، مع ميزة أني

أقدر على أخذ أهلي معي في أي وقت، (دهشت إلى حدود كبيرة عندما اكتشفت أن كل أصدقائي من الأطباء يحسدونني على هذا العقد، ومنهم طبيبة علويّة تقيم في طرطوس الهادئة، وهي تعاني من ضغط العمل في عيادتها هناك، فهي لم تتردد في الطلب مني أن أبحث لها عن عمل في اليمن). كثيراً ما كنت أتخيَّل نهايات مختلفة لهذا العمل وأنا أكتب مقاطعه، كنت أفكر في أني أرصد تفاصيل العالم الداخلي لتجربة ستنهي الديكتاتورية، كانت الكتابة محاولة للحفاظ على إرث حسي لتجربة تنتهي بنصر ما أو بالحد الأدنى بتحولٍ نحو الديمقراطية، أحس بخيبة أملٍ فادحة، وبضررٍ غير قابل للشفاء، بهزيمةٍ لا يمحوها الزمن سأحملها معي. تحاشيت الكتابة كثيراً عن مجريات البحث عن عمل وعن أخذٍ ورد قاتلين حوله، كأني أشارك في لعبة عدم تصديق أني سأغادر، أحس أني أشبه شخصاً يودّع جثة أبيه دون أن يصدق أنه مات. لا أقدر أن أصدق أن بلدي يكاد يكون قد انتهى، لا أرغب في الرثاء بل أطمّع نفسي بمستقبل أفضل لمدى وزينة تكون اليمن محطة أولى فيه، إذ جاءتني سابقاً عدة عروض عمل في بلدان أخرى، وتوقفت لسبب بسيط هو أني سوري، سوري ذليل ومنبوذ يتاجر الآخرون بمأساته، هذه حقيقة! فكل دول الخليج ودول أوروبا ترفض إعطاءنا فيزا سفر. ما أحمله الآن من خيبة وهزيمة يدفعني حقيقة إلى التردد في نشر هذا العمل، في نشر وثيقة عن هزيمتي. الأمر ليس سهلاً، ولكني إن قمت بنشره فسأنشره كما هو دون تعديلات تجمّل من هذه الهزيمة، فإن كنت مهزوماً فهذا لا يجردني من الصدق، من شجاعة الاعتراف بهذه الهزيمة بكل قبحها وظلمها، أسافر وأنا أفكر في بلدٍ حمل الكثير من الأفكار والمشاريع التي انتهت بكوارث، ومع ذلك شكلت حماية لجيل كامل كبر على أحلامٍ جاءت خارج السياق على الدوام، ومع ذلك، هل هناك ما نسميه بالفرصة الثانية أم إننا محكومون بعبثية الخيار الإنساني تحت وطأة الشرط الموضوعي؟ يقول بعض المعارضين العلمانيين إن

الثورة سرقها الإسلاميون. ويقول البعض إن العنف الوحشي من قبل النظام سينجب وحشية إسلامية متشددة لصدّه. وأنا أقول إن الانتفاضة لم تفلح في خلق وعيٍ جديد، لذلك كانت سرقتها أسهل، أسافر وأنا أعلم أني لن أعود في المدى القريب، أسافر وفمي لم يفرغ من الكلام بعد، لكنّ لم تعد هناك جدوى من الكلام السائل كدم القتيل!

2013/1/3

شهادة عن الحياة اليومية أثناء الحصار الثاني لمدينة دير الزور في صيف عام 2012. يقوم الكاتب الذي يعمل طبيبا، وهو أيضا شاعر معروف، بتوثيق التفاصيل الدقيقة لمشاعره وأفكاره من مجريات الأمور. إنها كتابة وجدانية تارة، تحليلية تارة أخرى في خليط يقارب العبث في وضع عبثي حتى الأعماق.

يجتهد الكاتب في الابتعاد عن التعميمات والمواقف السياسية المسبقة ليركّز على التفاصيل الحياتية الدقيقة. وهو يلجأ إلى هذه الشهادة المجهرية للحياة لأنه يرى فيها "وسيلة لتفكيك الحصار، للتخفيف من هول كتلته". هذه الكتابة مرافعة، "مرافعة طويلة أمام القذائف الصمّاء، أمام اليأس والخوف، مرافعة طويلة كمنام طويل...".

بيت المواطن
للنشر والتوزيع